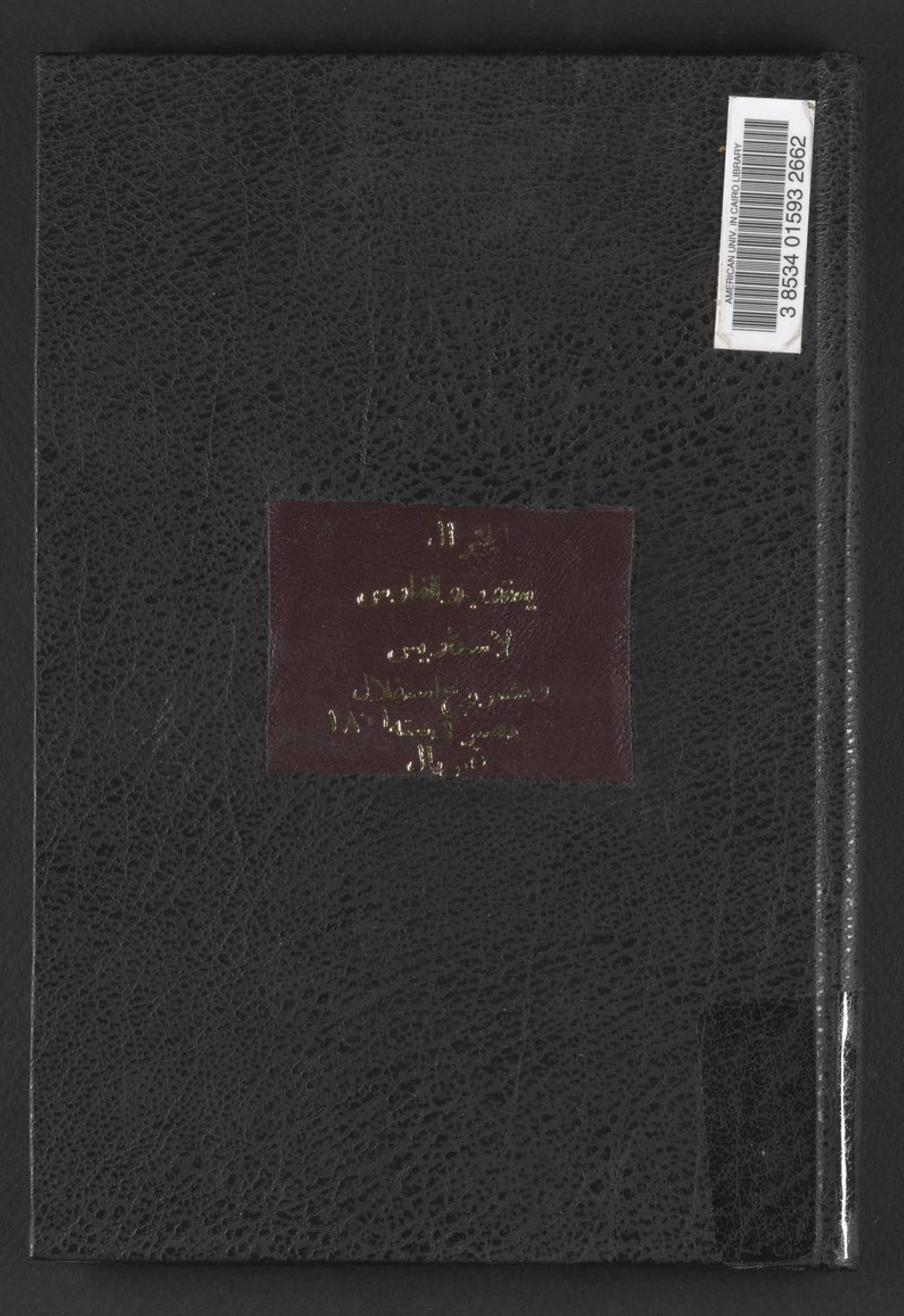
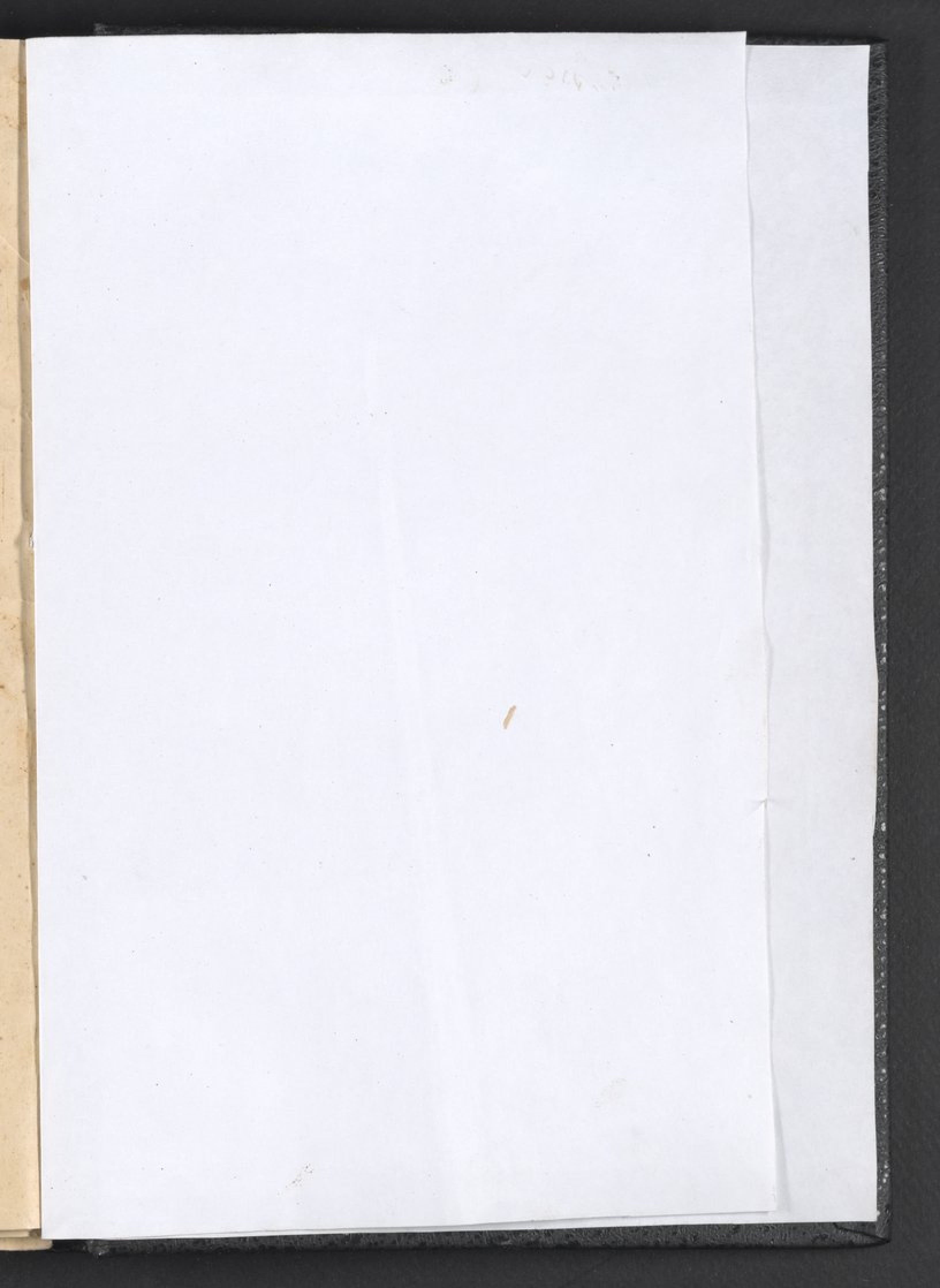

الجنرال
يعقوب والفارس
لاسكاريس
ومشروع استقلال
مصر في سنة ١٨٠١
غربال
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01593 2662







الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس
ومشروع استقلال مصر
فى سنة ١٨٠١

تأليف

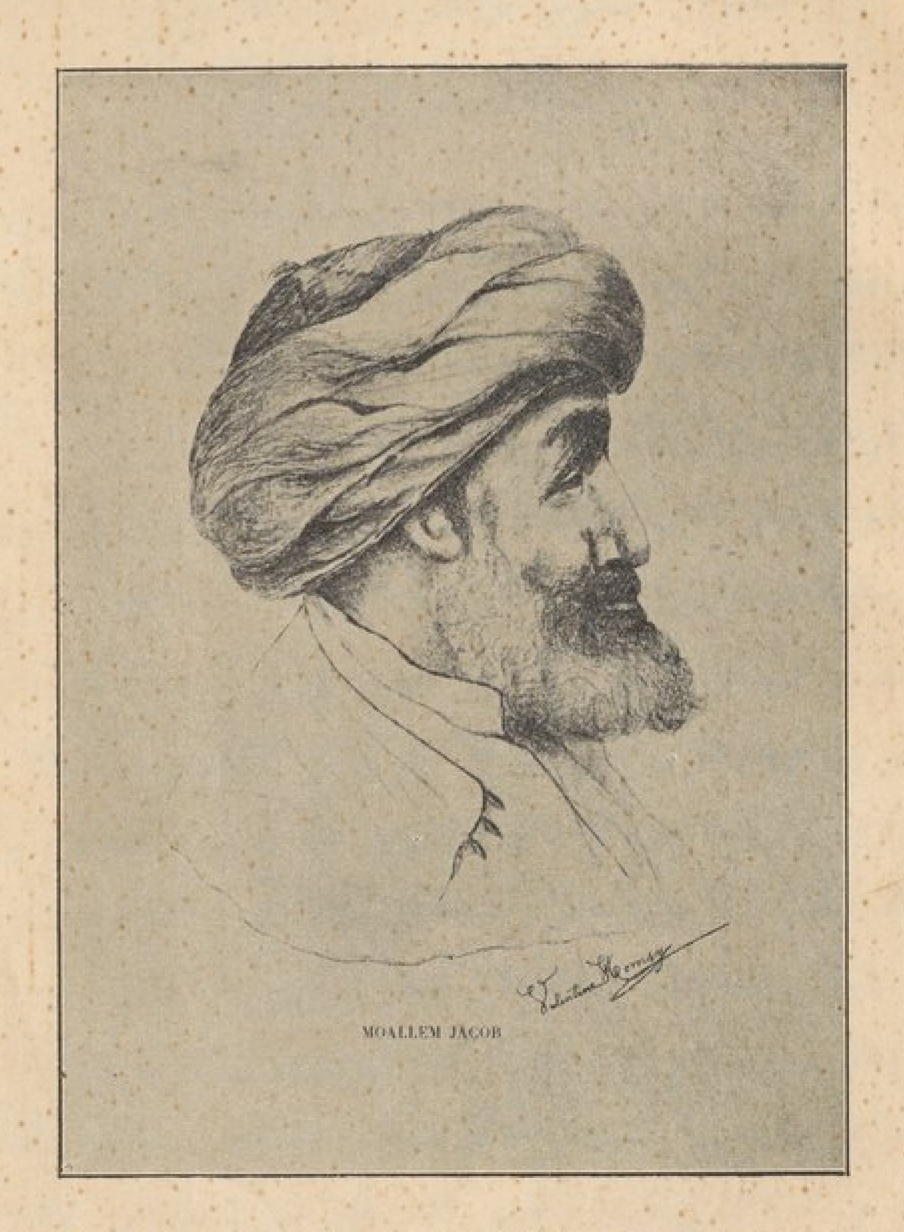
شفيق غربال

أستاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب



مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

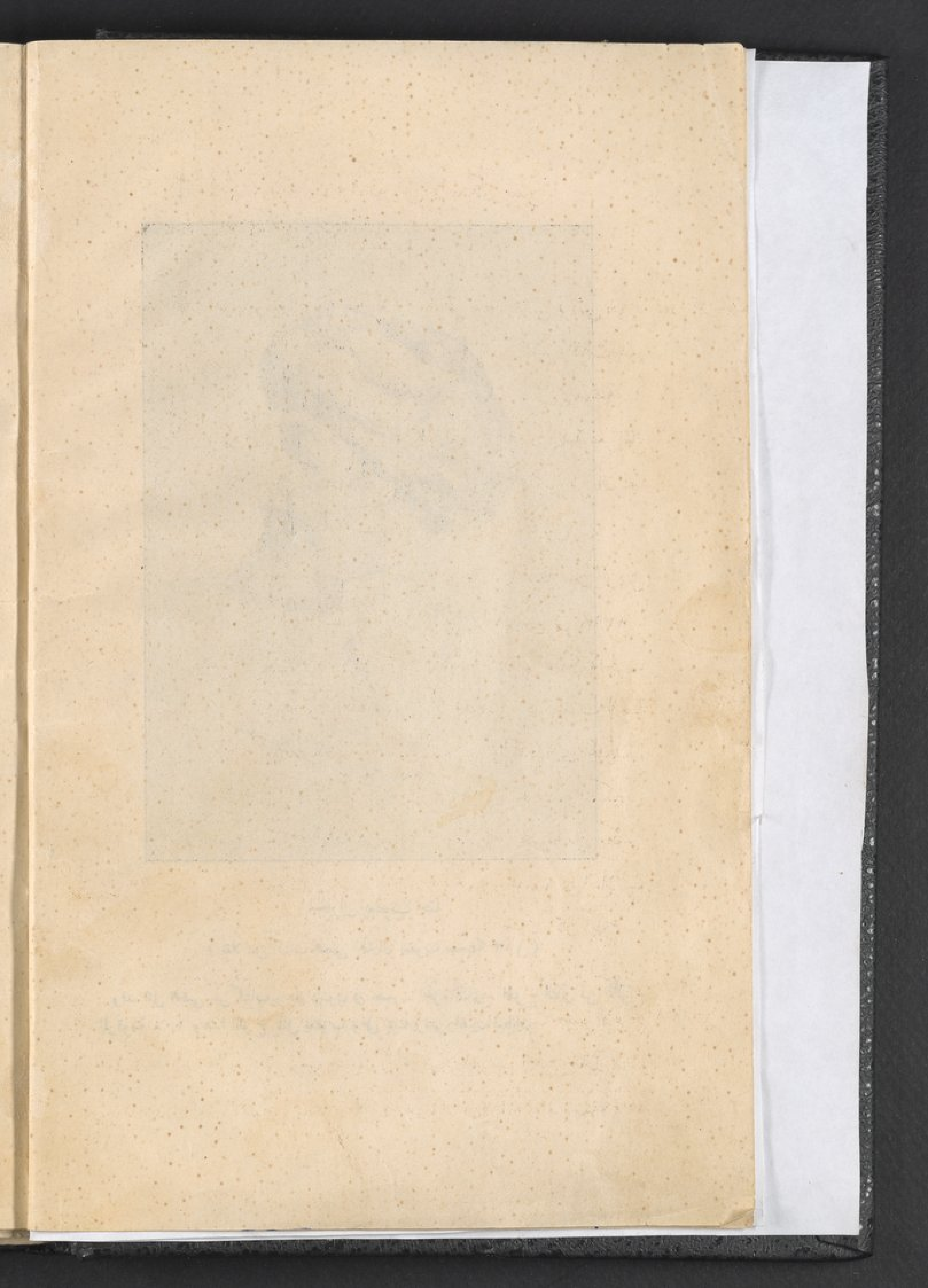
١٩٣٢



الجنرال يعقوب حنا

(نقلا عن كتاب همصى الجنرال يعقوب صحيفة ١١٣)

وقد نقل همصى عن كتاب رحلة دينون فى مصر . الجزء الثانى . اللوح الثانى من الألواح المرقومة ١٠٨ وهذا اللوح يمثل يعقوب وعلى يمينه رسم راهبين قبطيين



الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١

قدوم الفرنسيين

فى الأيام الأولى من شهر يوليه سنة ١٧٩٨ نزل بأرض مصر جيش فرنسى يقوده نابليون بونابرت. ولم تكن هذه أول أغارة لهم عليها . ففى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حاولوا امتلاكها ، وتلاقت صفوة فرسانهم بمماليك مصر فى أكثر من موقعة .

وكان الفرنسيون فى تلك الأيام الغابرة — كما كان أهل الغرب عامة — أقل حضارة و إتقاناً لفن الحرب كما مارسته العصور الوسطى ، وكان الفارس من الفرنجة صورة سقيمة من المملوك الشرقى ، فكانت عاقبة تلك الاغارات الفشل

ومضت خمسة قرون تحول فيها فارس العصور الوسطى كما عرفه سان لويس و بيبرس إلى الرجل الغربى الذى سيعرفه مراد والألفى والبرديسى فى ١٧٩٨ . خمسة قرون زال فيها النظام الإقطاعى وما ترتب عليه من طرق الحكم والحرب وعلاقات طبقات الأمة بعضها ببعض . خمسة قرون رأت انفصام وحدة الغرب الدينية والسياسية وظهور مناهج العلم الحديثة وطرق التنظيم السياسى والاقتصادى الجديدة . أما مماليك مصر فكانوا فى ١٧٩٨ كما كانوا فى ١٢٥٠ فى الحرب والتفكير . أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلالهم ودولتهم وما كانوا يجبونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة فى أرضهم . كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء وظلوا فى كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان أباؤهم .

الاحتلال الفرنسى ١٧٩٨ — ١٨٠١

اصطدم المماليك فى صيف ١٧٩٨ بغرب غير الغرب الذى عرفوه أيام الحروب الصليبية، وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه «من أنه إذا جاءت جميع الافرنج لايقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم [1]» وتمكن الفرنسيون من احتلال مصر

---

(١) الجبرتى : «عجائب الآثار» حوادث المحرم ١٢١٣ جزء ثالث ص ٢ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢

وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلاً على ثلاثة أعوام . وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية . وضيق عليهم أثناءها حصار بحرى انجليزى . وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك . وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية عدداً لا يستهان به . وظل مراد ومماليكه ومن انضم اليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهوراً عديدة ينازعونهم ملك الصعيد شبراً شبراً . وأخذت تبطل التجارة البحرية ويقل ورود قوافل دارفور وسنار وفزان وبرقة وغيرهما من بلاد المغرب . ولم تطب للفرنسيين الاقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا[1] وشق عليهم البعد عن وطنهم وبخاصة بعد ما بلغهم من تألب الدول الأوربية من جديد ضد فرنسا وارغامها على التخلى عن فتوحها فى ايطاليا وغيرها . وحتى مصر نفسها ، عرفوا معرفة أكيدة أن السلطان قد اعتزم الاَّ يتخلى عنها ، وأرسل نحوها من ناحيتى البحر والشام جموعاً من جنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يأبه له الغربيون ولكنها ، ولا بد ، لها مع الزمن أثر .

لا بد من تذكر هذه الظروف عند الحكم على الاحتلال الفرنسى . ولا بد إذن من الفصل بين أمرين مختلفين تماماً : الحكم الفرنسى كما كان والحكم الفرنسى كما يمكن أن يكون لو خلص مما انتابه من ظروف الحرب والفتن واتسع له الزمن ليجرى على أسس الاستعمار الحديث .

ولا يمكن الشك فى أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها فى عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادى الكبير أن تحكم قطراً زراعياً خصباً ذا مركز جغرافى فذ كوادى النيل

(١) يتجلى هذا الكره للاقامة فى مصر فى أكثر ما تركه رجال الحملة من مذكرات . ويبدو واضحاً أتم الوضوح فيما كتبه بعض منهم لأهلهم فى فرنسا فى رسائل استولى عليها الانجليز ونشرتها الحكومة الانجليزية فى سنتى ١٧٩٨، ١٧٩٩ فى أجزاء ثلاثة تحتوى على الأصول وترجمتها الى الانجليزية ولم تهمل الحكومة التعليق اللازم عليها من قلم فرنسى من المهاجرين . وقد راجعت هذه الأجزاء على المخطوطات فى دار السجلات فى لندن ووجدتها صحيحة مطابقة للاصل. راجع "Original Letters from the Army of Bonaparte intercepted by the British fleet". 3 parts. London 1798—1799.

وأمة عربية اسلامية ذات تاريخ مفعم بعبر الدهر كالأمة المصرية . لو خلص لهم حكم مصر لبذلوا جهـداً صادقاً فى تنمية الموارد بتنظيم الرى وضبط النيل . وقد كتب بونابرت فى مذكراته فصلاً رائعاً عن ضبط النيل بانشاء سدين على فرعيه عند رأس الدلتا[١] . ولو دامت مدتهم فى مصر لعملوا كل ما يستطيعون للاستفادة من مركز مصر الجغرافى ، ولوصلوا بين البحرين الأبيض والأحمر — وكتاب وصف مصر يشتمل على الدراسات العلمية الأولى لهذا المشروع الخطير[٢]. واستعمار مصر كان لا بد له أن يؤدى إلى اتساع النفوذ الفرنسى على ساحلى البحر الأحمر و إلى ما وراء سيناء من ناحية فلسطين والشام . وأن يؤدى أيضاً للتقدم نحو منابع النيل وجعل مصر المدخل والمخرج لتلك الأرجاء الأفريقية الواسعة وحل اللغز الجغرافى القديم . وقد سجل تاريخ القرن التاسع عشر تحقيق الكثير من هذا على يد محمد على . مما يدل على أن خطط الحكومات ليست مما يستنبط من بطون الكتب ولا مما تجود به القرائح إنما هى مما يمليه الواقع الجغرافى ويكرره التاريخ فى أدواره المتباينة .

ولو دام الاحتلال الفرنسى لسلك نحو المصريين مسلكا يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم ثم يعمد بعد هذا التحسين الى أبطال النمو — أو الى أبطاله فى بعض النواحى وتوجيهه فى الاتجاه الذى يريد . ولم يكن بد من اهتمام الفرنسيين بهذا التحسين الأبتر بحكم الانسانية المشتركة و بحكم منفعتهم : يُقاوم الأو بئة بانشاء المستشفيات وما تستلزمه من مدارس الطب والمحاجر الصحية حفظاً للقوى العاملة فى الانتاج الزراعى الذى يغذى الخزانة العامة و يمون التجارة ، ومنعاً لانتقال المرض الى الفرنسيين . يصلح الأداة الحكومية و ينوع الادارات صيانة للأمن وضبطاً للأموال العامة . و يستلزم هذا اصلاح نظام الجباية ونظام الضرائب . و يتبعه الغاء الالتزام

(١) تجد هذه المذكرات فى
1. Napoléon: "Notes écrites sur l'Egypte",
"Voyage du Maréchal Duc de Raguse", Paris 1873 t.IV. pp.261—281.
نظر أيضا Bourienne: "Mémoires", Paris 1829, t. II. pp. 276—282.
Mouriez: "Histoire de Méhemet Ali, t. III. pp. 84—86 note.

(٢) 2. Description d'Egypte. Etat Moderne, t. I. vol. V.

واستقرار ملكية الفلاح للأرض[١] . يفتح الأبواب لرؤوس الأموال الفرنسية ولنظم التجارة والمعاملات الغربية . و يؤدى هذا لتنظيم القضاء على أساس غربى ولدخول القوانين الغربية . و يعنى باعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الادارة من صغار الموظفين . ولو دام الاحتلال الفرنسى لاعتمد بعض الاعتماد فى الدفاع عن البلاد على جيش وطنى من أبنائها[٢] .

ولو دام الاحتلال الفرنسى لاحتاط أشد الحيطة فى كل ماله علاقة بالتفكير الدينى من المسائل الاجتماعية وموضوعات البحث العلمى . فالحاكم الغربى يحب أن تكون قواعد الانتاج الاقتصادى غربية صرفة لأن هذه القواعد تزيد الانتاج والزيادة مما يهمه . ولكنه يكره من المحكومين الشرقيين الانقلاب الاجتماعى والبحث العلمى الحر . وذلك لأسباب : منها حرصه على أن لا يظهر للعامة فى مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لابد وأن تؤدى فى النهاية الى الرغبة فى الاستقلال . ومنها الميل الى المحافظة على المظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ باللطائف والتحف .

والمتأمل فى أحوال الأمم الاسلامية فى الوقت الحاضر يتحقق صدق ما ذهبنا اليه . فانه يجد أن أشد هذه الأمم تطرفاً فى الهدم والتغيير الأمة التركية العثمانية والأمة الفارسية وهما الأمتان اللتان تخلصتا تخلصاً تاماً من حكم الغرب السياسى .

أما عن نظام الحكم فالمنتظر من الاحتلال الفرنسى لو أن أيامه دامت أن يبقى

---

(١) راجع مشروع الجنرال مينو فى
1. Rigault: "Le Général Menou", pp. 254—9.

ومذكرات نابليون فى
Napoléon: "Campagnes d'Egypte" Vol. I p. 239 and Vol. II. p. 149.
"Correspondance de Napoléon", t. XXIX pp. 493—496.

(٢) كتب نابليون فى مذكراته :
2. "Il faut accoutumer insensiblement le pays à la levée d'une conscription pour recruter l'armée de terre et l'armée de mer."

ثم أخذ بعد هذا يصف عناصر هذه القوة الحربية ويشرح رأيه فى ما يجب أن يكون عليه زى رجالها الخ

"Campagnes d'Egypte": Vol. II. pp. 151 sq. Voir aussi Correspondance de Napoléon, Vol. XXX pp. 85—86.

حكم القرى على ما عرفته مصر فى عص…
…لمسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم
وأن يعهد لفرنسيين فى إدارة الأقاليم وأ… ونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء
الفرنسيون على الدواوين التى أنشأها فعلاً بو… رر من اساءة للشعور الاسلامى وبَيَّن
كما توهم البعض فبونابرت لم يكن ممن يعجبون فقال: «لا فائدة فى اظهارنا الاحترام
بل رمى بها الى انشاء وسائل تمكنه من الاتص… والروم والمسيحيين الغربيين بقدر
فى نفوسهم وتفهيمهم حقيقة مشروعاته ونواياه حتى يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر
ولا لسوء الفهم(١) … ا فى الماضى(١)» . ونجد فى

هذا بعض ما نتصوره عن تطور الحكم الفرنسى … دث رمضان سنة ١٢١٣
أمرها . وليس هذا التصور مما يخلو من الفائدة التاريخية … الى ترك لبس العمائم البيض
من الواقع . فأكثره مستمد مما كتبه بونابرت(٢) وغيره من نواياهم … ذلك ونبهوا
تحقيقه فعلاً ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسى فى غير مصر من الأقطار … شون على … ولا
لكن الزمن لم يتسع لتحقيق ما صورناه . ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على -
مصر - بونابرت وكليبر ومينو - أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهدهم للتغلب على
الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بجيشهم وحكمهم . ولم يكن ما قام به أولهم

(١) كتب نابليون فى مذكراته :

1. "Nous avons besoin, pour les (les peuples) diriger, d'avoir des intermédiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiront eux-mêmes. J'ai préféré ces ulimas et les docteurs de la loi: 1e. parce qu'ils l'étaient naturellement; 2e. parce qu'ils sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles proviennent des idées religieuses; 3e. parce que les ulimas ont des mœurs douces ... sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays ... ne savent pas monter à cheval, n'ont pas l'habitude d'aucune manœuvre militaire, sont peu propres à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai interessés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple, j'en ai composé les divans de justice ..."

Napoléon: "Campagnes d'Egypte". Vol. II. pp. 151 sq. voir aussi "Correspondance" vol. XXX, 83—4.

(٢) اقرأ أيضاً ما كتبه نابليون تحت عنوان «ما يكون من أمر مصر تحت الحكم الفرنسى» فى الفصل الثانى من مذكراته عن الحملة

"Correspondance de Napoléon. t. XXIX pp. 428—430".

واستقرار ملكية الفلاح للأرض[١] . يفتح ا. ية الاداة الحقيقية لحكم البلاد ولم تتغير فى
التجارة والمعاملات الغربية . ويؤدى هذا لا العمال . بل ظلت كما كانت أيام المماليك
القوانين الغربية . و يغنى باعداد طائفة مرتقضاها الفرنسيون فى حكم مصر عهداً سعيداً
الموظفين . ولو دام الاحتلال الفرنسى لا قبل قدومهم الانقلابات السياسية : اعتادها
على جيش وطنى من أبنائها[٢] . . بصفة خاصة أهل القاهرة . وكانت الانقلابات

ولو دام الاحتلال الفرنسى لا كثير من اختلال الأمن وضروب العنف والتعسف
من المسائل الاجتماعية وموضوعا من الضرائب والمغارم . إلا أن هذه الانقلابات كلها
قواعد الانتاج الاقتصادى غر . يأتى واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم :
يهمه . ولكنه يكره من الج خصومه و يحكم البلاد كما حكمها خصومه ؛ ثم يتغلب عليه
الحز . وذلك ، حكم كما حكم على وهكذا دواليك .

المشجع . يكن للمصريين من نصيب فى هذه الانقلابات إلا عمال الادارة المالية من
فى الضباط ورؤساء القبائل العربية والشيوخ من العلماء : فالفريق الأول بحكم اضطرار
ق لأمراء جميعاً لاستخدامه ، يعمل للمنتصرين كما عمل للمنهزمين . ورؤساء العربان
بسبب قوتهم الحربية قد يرجحون كفة طائفة من الأمراء على كفة خصومها . والشيوخ
العلماء بحكم تصدرهم ونفوذهم فى الناس وتحليهم بصفات الفضل والاعتدال . يلجأ
اليهم الناس للوساطة فى رفع الحيف إذا ضاقوا به ذرعاً . وقد يحتكم اليهم المتخاصمون
من الأمراء . وكان تدخل الشيوخ عادة لرفع الضيم واحلال الوئام محل الخصام أو
للتخفيف من عنف الانقلابات

أما الحكم الفرنسى فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون . إذ لما زال حكم
مراد وابراهيم حل محلهما بونابرت ولم يكن مسلماً ولا مملوكا . ومهما قيل فى قلة
تدين الفرنسيين فى تلك الأيام فهم غير مسلمين قد تصل بهم الضرورة الحربية أو
ما ظنوه الضرورة الحربية الى انتهاك الحرمات الاسلامية .

كذلك ترك الوالى العثمانى مصر عند الاغارة الفرنسية وزال بغيابه مظهر التبعية

للسلطان العثمانى خليفة المسلمين وسمع المصر لسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم

سُمّى لهم نظامها السياسى بأسماء شتى لا تدلهم ونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء

عليهم منشور « من طرف الفرنساوية المبنى على ر من اساءة للشعور الاسلامى وبَيّن

لهم الحوادث بشهور غريبة من سنين تبدأ « فقال: «لا فائدة فى اظهارنا الاحترام

وكانت للفرنسيين طرقهم فى مخالطة النسا والروم والمسيحيين الغربيين بقدر

الخاصة كرهاً شديداً . وأدى انتشار العسكر فى أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر

أسرات الأمراء وانطلاق جواريهم عقب تركهم الق انوا فى الماضى[١]» . ونجد فى

ادث رمضان سنة ١٢١٣

من الفساد والرذيلة

الى ترك لبس العمائم البيض

جاء فى الجبرتى فى حوادث ربيع الأول سـنة .

لهم من ذلك ونبهوا

رابع وعشرينه كان وفاء النيل المبارك . . . . ووقع فى تلك الـ . . . مشون على

من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف وسلك ولا

غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورزالة الرقاعة بدون

ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم بل كل انسان يفعل ما تشتهيه نفسه

وما يخطر بباله وان لم يكن من أمثاله .

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً . فشيمة أهل الدار كلهم الرقص[٣]»

وجاء فيه أيضاً فى ختام حوادث سنة ١٢١٥ : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه . . . . ويركبن الخيـول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم [أى الفرنسيين] للنساء و بذل الأموال لهن

---

(١) الجبرتى . حوادث المحرم ١٢١٣ — جزء ثالث ص ٤

(٢) انظر مثلا الجبرتى : حوادث المحرم ١٢١٥ — جزء ثالث ص ١٢٢

(٣) الجبرتى جزء ثالث ص ٨١ — ٨٢

واستقرار ملكية الفلاح للأرض[١] . يفتح .شمة وخشية عار ومبالغة فى اخفائه . فلما
التجارة والمعاملات الغربية . ويؤدى هذا بس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها
القوانين الغربية . ويغنى باعداد طائفة مو.نبات صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى
الموظفين . ولو دام الاحتلال الفرنسى لامل الأحوال فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالمرة
على جيش وطنى من أبنائها[٢] . ... من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلد من

ولو دام الاحتلال الفرنسى لا كثير... اع الخيرات فى حوز الفرنسيس ومن والاهم
من المسائل الاجتماعية وموضوعادمعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو
قواعد الانتاج الاقتصادى غر... لرحن الحشمة . . . واستملن نظراءهن (لمخالطـة
بهمه . ولكنه يكره من المحـ... الكثير منهم بنات الأعيان . . . فيظهر حالة العقد
الحر . وذلك ... حكم كما ليس له عقيدة يخشى فسادها وصار مع حكام الأخطاط منهم
المشجع ... سلمات متزيبات بزيهم ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية . . .
فى ...نى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على مثل شكلها وامامها القواسة والخدم
و... و بأيديهم العصى يفرقون لهن الناس مثل مايمر الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام . .
ولما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من
تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب والرقص والغناء
والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة
والحلى والجواهر وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من المجون والهزل .
وخصوصا اذا دبت الحشيشة فى رؤوسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون . . . .
ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم الشىء الكثير .
وأما الجوارى السود فانهن لما علمن برغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبوا اليهم أفواجا
فرادى وأزواجا فنططن الحيطان وتسلقن اليهم الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهم
وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك[١] »

---

(١) الجبرتى : جزء ثالث ص ١٧٠ — ١٧١

وفى أيام الاحتلال الفرنسى حَرَّرَ غيرُ المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء الاسلام . وقد عرف بونابرت ما فى هذا التحرر من اساءة للشعور الاسلامى وبَيَّنَ فى مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بياناً واضحاً فقال: «لا فائدة فى اظهارنا الاحترام العميق للدين الاسلامى اذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية . وقد أردت أن يكونوا اكثر خضوعاً واكثر احتراماً لكل ما يتعلق بالاسلام و بالمسلمين مما كانوا فى الماضى[1]» . ونجد فى الجبرتى تأييداً لصدق هذه الرغبة . فيذكر فى حوادث رمضان سنة ١٢١٣ « رجوع نصارى الشوام الى لبس العمائم السود والزرق والى ترك لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك ونبهوا (أى الفرنسيون) أيضاً بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان[2] . . . »

لم تستمر الحالة على ذلك . ولم يكن استمرارها مما يمكن فى ظل حكم غربى جمهورى شعاره المساواة والحرية الدينية . وما كانت الاعتبارات السياسية لتستطيع محو هذا الشعار تماماً . هذا الى حاجة الاحتلال الفرنسى لغير المسلمين : لأموالهم ودرايتهم بأحوال البــلاد ونظمها وعادات أهلها ولامكان الوثوق بهم بفضل اتفاق المنافع .

فعاد غير المسلمين الى ما عبر عنه الجبرتى بقوله : (ومن الحوادث) ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين[3] . . . . »

---

1. "Correspondance de Napoléon, t. XXX, p. 84. (١)

(٢) الجبرتى : جزء ثالث ص ٤٧

(٣) الجبرتى : فى حوادث شعبان ١٢١٣ . جزء ثالث ص ٤٦

ولم يكن للحكم الفرنسى فى مدته القصيرة ، وفى ظروف الحرب والفتن الملابسة له ، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الاغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعى . فقد كان حكماً عسكرياً شديداً عنيفاً . ولم يكن الإصلاح الذى فكر فيه الفرنسيون ، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها ، والبحث العلمى الذى شرعوا فى اقامة قواعده مما يجتذب اليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل . ذلك لأن النظم الحكومية التى اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق فى آخر القرن الثامن عشر كانت ترمى لأغراض ثلاثة أساسية : جمع الأموال المفروضة ، والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة ، واستتباب الأمن . وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة فى أحوال الرعية ؛ بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه الجماعات أو لا تنظمه كما جرت به العادات . و إذا شئنا اجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكى ، قلنا أنه يمتاز بقلة التدخل الحكومى كما نفهمه الآن و بالعنف والتعسف . و يجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها فى كل ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية . و يجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفة لتجنبه أو لتخفيفه . فان ارتباك الإدارة الذى نجم عن الانقلابات المتتابعة ، وسوء ذمة العمال ، وفوضى السجلات ، وما إلى ذلك فتح للرعيــة أبواب الخلاص من الفرض المختلفة سواء منها الشرعية وغير الشرعية .

لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون فى ١٧٩٨ بالتدخل الحكومى و بما يصحبه من النظم الدقيقة . ولا أن يعدوها – كما نعدها الآن – ضماناً لحقوقهم . لأنهم على العكس كرهوا ضبط الدفاتر ، واعتبروه اشتطاطاً فى الطلب ، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسائل لمنع الأمراض ، كتخطيط المدن من جديد ، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق ، وكنس الطرقات ، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبداداً لا يطاق وفضولاً لا يفهم .

كره المصريون الحكم الفرنسى وقاوموه . ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين . وقام الفلاحون فى الأقاليم كلما أتيحت لهم فرصة . وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفى لتفسير هذا الكره دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب فى القرن التاسع عشر . والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم الا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة فى العودة لما ألفه الناس . ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً . انما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية .

وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية . كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسى وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم . فكان موقفهم فى أيام الاحتلال الفرنسى موقفهم فى الانقلابات الماضية . إلاَّ أن منهم ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسى واعادة الحالة التى سبقته . يذكر التاريخ مثلاً السيد عمر مكرم الذى ترك مصر عند الاحتلال الفرنسى واشترك فى ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثمانى لتسلم البلاد من الفرنسيين بحسب اتفاق العريش . وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب فى قيام العامة على خورشيد باشا الوالى العثمانى وتنصيب محمد على والياً على مصر . وجرى له أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية فى مقاومة الظلم[1] . ولكن لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلطان سعياً لاستقلال مصر . والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسى . وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم فى محمد على كما تحكم فى خورشيد من قبل . فذاق النفى عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية[2] .

وكان السيد احمد المحروقى ممن ظهر أيضاً فى فتنة القاهرة الثانية . ولكنه لم يتصف بصفات الزعامة التى ظهرت فى السيد عمر مكرم مثلاً . بل كان رجلاً من رجال المال

---

(١) الجبرتى : فى حوادث صفر ١٢٢٠ جزء ثالث ص ٣٥٢

(٢) الجبرتى : فى حوادث جمادى الأولى والثانية سنة ١٢٢٤ جزء رابع ص١٠٢–١٠٥

من نمط فوكيه ومن يماثله فى أيام الملكية الفرنسية . وأصدق وصف له قول البرديسى له « مثلك من يخدم الملوك »(١)

وظهر فى هذه الفتنة أيضاً السيد السادات . وكان من أكثر العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه ، ومن أشدهم سعياً لأعادة الحكم العثمانى . ثم تبين له خطؤه عند فرار الجيش العثمانى بعد هزيمته فى واقعة المرج أو هليو بوليس وترك رجال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفرنسيين بعد أن أثاروهم وحمسوهم . فكتب لعثمان كتخدا الدولة كتاباً جاء فيه ؛ « ألزمتم الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل و بلغ فى النهب غاية الغايات فكان جهادكم فى أماكن المو بقات والملاهى .... أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور »(٢)

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسى أنهم كانوا مخدوعين فى قيامهم على الحكم الفرنسى من أجل العثمانيين . وأنهم كانوا فى فتنتهم ضحية « الدجاجلة » كما سماهم الجبرتى الذى اختص منهم رجلاً مغر بياً لا ناقة له فيها ولا جمل . يدعو للجهاد و يحرص على الابتعاد عن مواطن القتال ، يهدد من يتكلم فى الصلح برمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج(٣) .

☆
☆ ☆

الجنرال يعقوب

و إذن فلا يرى التاريخ الصحيح فى موقف العامة وزعمائها وأهل الرأى فيها أثراً لفكرة الاستقلال الوطنى . ولا يسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسى لا فترة نحس يُرْجى زوالها وعود ما سبقها . بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة

---

(١) ترجمة المحروق فى الجبرتى جزء ثالث ص ٣٤٢ — ٣٤٦

(٢) الجبرتى : حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٨

(٣) الجبرتى : حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ص ١٠٤ — ١٠٥

المماليك . ذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا[١] : موضوع هذه الرسالة

لا أحب أن أغلو فأزعم أن يعقوب فهِم تماماً كل الاحتمالات التى انطوى عليها هدم النظم القائمة فى مصر وحكم أمة غريبة لها . أو أنه تحول فى هذه الأشهر القليلة التى قضاها مخالطاً للفرنسيين من جابٍ من جباة الأموال نشأ ودرج فى بيت من بيوت الأمراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى داعٍ من دعاة الحركات الوطنية التى يعرفها الغرب فى القرن التاسع عشر . بل أجد يعقوب يحتفظ حتى بعد مخالطة الفرنسيين ببعض صفات الجباة وعمال الادارة المالية من أبناء طائفته فى ذلك الوقت[٢] . ولكنه رغم ذلك تأثر تأثراً بيناً باتصاله بالفرنسيين و بالغرب وكوّن رأياً خاصاً عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدى اليه ولا يشاركه فى هذا الرأى الزعماء من أبناء طائفته (وقد خدموا الاحتلال الفرنسى كما خدموا الانقلابات

(١) هناك ترجمة ليعقوب فى كتاب مشاهير الاقباط تأليف رمزى تادرس (جزء ثالث ص ١٠ — ١٦) . وفيها أغلاط . أهمها ما جاء عن موته ومحل دفنه . وليس فى هذه الترجمة تقدير حقيقى لسياسة يعقوب وأرائه وموقفه عند الجلاء الفرنسى — وهناك أيضاً ترجمة أخرى فى كتاب تاريخ الأمة القبطية تأليف يعقوب بك نخلة رفيله (ص ص ٢٨٩ — ٢٩١) وهذه الترجمة أهم من السابقة اذ سجل فيها المؤلف ما سمعه عن يعقوب من المعمرين من الأقباط . وأخيراً نشر فى سنة ١٩٢١ المسيو Gaston Homsy وهو فرنسى يتصل نسبه بيعقوب مؤلفاً باللغة الفرنسية اسمه "Le général Jacob et l'expédition de Bonaparte en Egypte". وهذا الكتاب رغم عيوب خطيرة فى ترتيبه واستنتاجاته لا يخلو من فوائد . اذ جمع فيه المؤلف الكثير مما جاء عن يعقوب فى مؤلفات أهل الحملة ونقل عن السجلات الرسمية فى مرسيليا وثائق مختلفة خاصة بأسرة الجنرال . ومن النقط الهامة التى حققها المسيو همصى تاريخ موت يعقوب وموضع قبره فى مرسيليا والسيف الذى قلده اياه الجنرال Desaix . وعن كتاب المسيو Homsy نقل أعضاء لجنة التاريخ القبطى فى « تاريخ الأمة القبطية » (ص ١٦٩ — ١٧١) ما كتبوه عن يعقوب ولا حاجة بنا للقول أن المسيو همصى لا يعرف شيئاً عن الوثائق السياسية الخاصة بمشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١

أما عن اسم يعقوب فقد اكتفى مؤلفو الحملة الفرنسية المعاصرون بذكر اسمه الأول فقط ولكنه يرد يعقوب حنا "Jacob Anna" فى الوثائق التى استخرجها همصى من سجلات مرسيليا — راجع شهادة وفاة فى همصى ص ١٤٠ — ١٤١

(٢) تجد اشارات « لمناورات مالية » من جانب يعقوب فى خطاب من لاسكاريس للجنرال مينو نشره مسيو أوريان فى رسالته عن لاسكاريس فى مجلة "Mercure de France" بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٨٧

السابقة) ولا أهل الرأى من مواطنيه المسلمين (وقد شرحنا موقفهم من الحكم الفرنسى)

يرد ذكر يعقوب فى تاريخ الجبرتى فى أكثر من موضع . ويرد ذكره فى كل هذه المواضع مقروناً بأعمال تمنع القارىء من أن يظن به خيراً وتمثله فى صورة المتفانى فى خدمة الاحتلال الفرنسى .

يذكر الجبرتى عنه تأييده الحكم الفرنسى أثناء ثورة القاهرة الثانية بينما الرؤساء الأقباط الآخرون بما فيهم أكبرهم جميعاً جرجس جوهرى يدارون الثوار ويمدونهم بالمال واللوازم صيانة لأرواحهم لا عطفاً على حركتهم[1] . « أما يعقوب — كما سجل الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١٢١٤ — فانه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه »[2] .

ويرد ذكره أيضاً فى وصف ما حاق بأهل القاهرة من الشدة فى جمع الغرامة المالية التى ضربها عليهم كليبر بعد اخماده الفتنة فيقول الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ : « وكل كليبر يعقوب يفعل فى المسلمين ما يشاء »[3] .

زاد نفوذ يعقوب فى الأيام التالية لفشل الثورة فى القاهرة . وزاد فى تلك الأيام التالية لفشل الثورة والسابقة لقتل كليبر . زهو الأقباط وخيلاؤهم — أو على الأقل زهو من كان يعمل للحكومة الفرنسية منهم . وترى امتعاض المسلمين ظاهراً فى الجبرتى فى أكثر من موضع : « منعوا المسلمين من ركوب البغال سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم ، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم وفى كل وقت[4] » . وأيضاً ، « وتطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ١٠١ (٢) الجبرتى جزء ثالث ص ١٠١
(٣) الجبرتى جزء ثالث ص ١١٣
(٤) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤

ولم يبقوا للصلح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين[١] » . وبَيَّن الجبرتى أن تعسف الفرنسيين فى الطلب كان بارشاد القبطة . . . « لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال ونزل كل كبير منهم إلى اقليم وأقام بسرة الأقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو فى أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز (أى المماليك) البطالة وغيرهم ، والخيام والخدم والفراشون والطباخون والحجاب وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسة والمقدمون و بأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة و يرسل إلى ولايات الاقليم من جهة المستوفين من القبط أيضاً بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر من الفرنسية والطوائف والجاويشية ، والصرافين والمقدمين على الشرح المذكور فينزلون على البلاد والقرى و يطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف و يؤجلونهم بالساعات فاذا مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب وخصوصاً إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم و إلاَّ قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم وسحبوهم معهم فى الحبال وأذاقوهم أنواع النكال ، وخاف من بقى فصانعوهم وأتباعهم بالبراطيل بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المنافع والمظالم ، وأجهدوا أنفسهم فى التشفى من بعضهم وما يوحيه الحقد والتحاسد الكامن فى قلوبهم إلى غير ذلك مما يتعذر ضبطه . وما كنا بمهلكى القرى إلاَّ وأهلها ظالمون[٢] » .

(و يصف الجبرتى اهتمام يعقوب بتحصين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية ،) فى الأيام الأخيرة من العهد الفرنسى . فيقول فى حوادث المحرم سنة ١٢١٦ : « فى عشرينه توكل رجل قبطى يدعى عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة الناس

(١) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤

(٢) الجبرتى فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٨ — ١١٩

للعمل فى المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم ، وسب وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه ، فتشكى الناس من ذلك القبطى وأنهوا شكواهم إلى بليار قائمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة . ثم فردوا « كذا » على كل حارة رجلين يأتى بهما شيخ الحارة ، وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة[١] » .

ولم يكتف يعقوب بكل هـذا . بل نظم جيشاً من الأقباط يخدم فى صفوف الفرنسيين . وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة[٢] فقد كان يعقوب صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عند ما جمع للفرنسيين . وقلده كليبر قيادة هذا الجيش ملقباً إياه بلقب أغا[٣] . وفى عهد قيادة مينو رُقى يعقوب جنرالاً ومنح براءة هـذا اللقب[٤] . وقد وصف الجبرتى هذا الجيش الوطنى — نلاحظ أنه أول جيش كوّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة — فى كلامه عن حوادث المحرم سنة ١٢١٥ : — « وفيه طلبوا عسكراً من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضروهم الى مصر وأضافوهم الى العسكر »[٥] . ثم قال فى كلام عام عن السنة كلها : « ومن حوادث هذه السنة أن يعقوب لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكر القبط جمع شبان القبط وحلق لحاهم (وان احتفظ هو بلحيته) وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة على ما يضاف اليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم وصَيَّرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها

---

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ١٨٨

(٢) 2. Homsy: Le général Jacob, p. 101.

(٣) 3. Homsy: Op. cit., p. 102.

(٤) 4. Homsy: Op. cit., p. 120.

(٥) الجبرتى جزء ثالث ص ١٢١

خلف الجامع الأحمر و بنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج و باب كبير يحيط به بدنات عظام وكذلك بنى أبراجاً فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع و بنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رمه الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً و بأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية »[١].

يرد ذكر يعقوب فى كل هذه المواضع فلا يمكن لقارىء الجبرتى أن يتصوره إلا كأحد أولئك المارقين الذين يظهرون فى عصور الحكم الأجنبى ويكونون خلالها حرباً على أممهم. ولكن القارىء لا يجد فى الجبرتى ولا فى غيره أن يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما انتهى الاحتلال الفرنسى هاجر وتبع الجيش الفرنسى الى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

عثرت على الاوراق الخاصة بهـــذا فى سجلات وزارتى الخارجية الانجليزية والفرنسية بعد أن كدت أطرح الأمل فى العثور على تفكير مصرى أو غير مصرى فى حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر[٢]. وقد أشرت إلى هذه الأوراق

---

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ١٧١ — قال يعقوب بك نخله رفيله فى تاريخ الأمة القبطية (ص ٢٨٩) أنه شاهد « أثار هذه القلعة قبل هدمها فى أيام المرحوم الخديوى اسماعيل ».

(٢) هذه الوثائق أربعة. الأولى كتاب بالانجليزية من القبطان أدموندس للورد الأول للبحرية الانجليزية مؤرخ عن جزيرة منورقه فى ٤ اكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديثه مع يعقوب فى الطريق الى فرنسا — الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور من قلم الفارس لاسكاريس. والوثيقتان فى أوراق وزارة الخارجية الانجليزية فى المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت الرقم الآتى

F. O. 78. Turkey 33 (September—December 1801)

والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع نمير افندى للقنصل الأول بتاريخ أول فندميير من السنة العاشرة (الموافقــة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١) و ١٨ صفر ١٢١٦ (وصحة هذا ١٥ جمادى الأولى) والرابعة بنفس التوقيع والتاريخ لتالليران وزير الخارجية والوثيقتان الثالثة والرابعة فى سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما المسيو أوريان فى مقالة عن لاسكاريس فى مجلة Mercure de France بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٩٣ - ٥٩٥ — وقد حرف المسيو أوريان اسم الموقع الى "Hemir" [راجع تحقيق هذه النقطة فى الملحق الثالث لهذه الرسالة] وترجمة الوثائق الأربع تجدها فى آخر هذه الرسالة

فيما نشرت فى تاريخ هـذا العهد من تاريخنا[١] . ونشر المسيو دُوَن ترجمة وثيقة ونص أخرى من هذه الوثائق فى كتاب ضمن المجموعة التاريخية التى تنشرها الجمعية الجغرافية الملكية بفضل حضرة صاحب الجلالة الملك . وقد مهد المسيو دون للوثيقتين بمقدمة تحليلية لهما[٢] . وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وفى طبيعة علاقاته بالفرنسيين .

خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين : خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين جرجس جوهرى وملطى وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة والخلاص مما كانوا فيه من امتهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم . وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعضيد المؤقت للحكم الغربى .

ومن حقق النظر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوائف الغير الإسلامية منهـا نظرت فى أول الأمر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التى نظر بها اليه يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر .

أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وإنما هو مزيج من مساوئ الفوضى والعنف والاسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت .

وثانى ما فى تأييده للاحتلال الفرنسى أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه . ولا يقل عن هذا شأناً — فى نظره — ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية . ونحن نسلم

---

(١) 1. S. Ghorbal : " The Beginnings of the Egyptian Question ", p. 210.

(٢) 2. G. Douin : " L'Egypte Independante ". Le Caire, 1924.

بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال . و بأنه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بانشائها وتسليحها وتدريبها . غير أنه يلزمنا أن نذكر أيضاً أن الدلائل كلها كانت تدل على أن هذا الاحتلال لن يدوم ، وأن القائد كليبر نفسه الذى أذن بانشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر وأنه لهذا حاول — كما نعلم — الجلاء عنها بعقد اتفاق العريش فى يناير ١٨٠٠ ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى نقضه(١) . وسنبين فى موضع آخر(٢) من هذه الرسالة أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتموا بمستقبل القوة الحربية القبطية اكثر مما اهتموا بحاضرها وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس تجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها .

كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها و يعيثون فيها فساداً . على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين ، و بغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس : الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبى الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى ، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم ، وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم . يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر . فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن ماثلهم .

(١) عن اتفاق العريش راجع .
1. Ghorbal „: The Beginnings of the Egyptian Question" Chap. VIII.
(٢) صحيفة ٣١

وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد . هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر ، ليس فى الواقع إلاَّ مظهراً لفروق أعمق . إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الاشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد ؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء . أما يعقوب فله شأن آخر . إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين و إنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين : ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسرو — ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على ، ذكر أن الألبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة : « نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا (١) » . أنتم رعية . تخضعون لمن ينتصر منا . هذا كل ما لكم !

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك . وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية . فكان سباقاً إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم و بخاصة نظمهم العسكرية . فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان .

☆
☆ ☆

كيف كان للاتصال بالفرنسيين هـذا الأثر كله فى نفس فرد واحد من أفراد الأمة فى آخر القرن الثامن عشر ؟ ذلك لأن يعقوب كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية . وقد ثبت من القليل الذى وصل إلى علمنا من أخباره قبل ١٧٩٨

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ٢٥٥

أن يعقوب لم يكن كغيره من المبرزين من أبناء طائفته فى ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم ، ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية يعقوب بك نخله رفيله المولود فى غضون سنة ١٨٤٧ والمتوفى فى ابريل ١٩٠٥[١].

قال صاحب هذا التاريخ : « يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتابة فى الدواوين مثل باقى عظماء أبناء أمته ، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة[٢] » وأنه سار فى مسلكه أزاء الحكم الفرنسى « فى خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم فى بعض الأحوال ببذل المال والعطايا فانه فضلاً عن مخالفته لهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية[٣] على أن رجال الدين ولا سيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله » وقد سمع صاحب التاريخ من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك « نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وأن يعيش كسائر اخوانه فلم يقبل وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جواباً عنيفاً فسخط عليه . وسمع أيضاً ما كان من تجرىء يعقوب على الدخول فى الكنيسة مرة راكباً جواده ورافعاً سلاحه وطلبه أن يناول السر المقدس وهو على ظهر جواده معتذراً عن هذه الجسارة بأن من كان جندياً مثله يلزم أن يكون على الدوام فى أهبة واستعداد »[٤].

---

(١) ترجمة رفيله فى كتاب مشاهير الأقباط تأليف رمزى تادرس جزء ثالث ص ص ٢٤ — ٢٥

(٢) الثابت غير هذا . وهو أنه عمل فى تدبير التزام سليمان بك الأغا فى الوجه القبلى راجع
Homsy: Le général Jacob, p. 17.

(٣) تزوج يعقوب مرتين . كانت زوجته الأولى قريبة له اسمها مختاره الطويل وبعد موتها تزوج من مريم بنت نعمة الله وأصله من حلب وكان هذا فى سنة ١٧٨٢ — والظاهر أن هذا الزواج لم تتم اجراءاته الدينية الا فى سنة ١٧٩١ على يد البطريرك — وقد مات يعقوب عن زوجته هذه وبنت ولدت له فى ١٧٩٣ — والظاهر أن الأرملة لم تملك وثيقة بزواجها فحصلت فى سنة ١٨١٨ على وثيقة من مسجلى العقود بمرسيليا به . راجع
Homsy: Le général Jacob, pp. 30—32.

(٤) تاريخ الأمة القبطية ص ص ٢٨٩ — ٢٩١

رفض يعقوب إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض ببذل المال وأحب أن يكون رجل حرب . وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه لأعمال القتال والفروسية على طريقة المماليك واشترك أيام ان كان يدبر التزام سليمان بك الأغا فى الصعيد فى بعض حروب المماليك ضد جنود القبطان باشا حسن الذى نزل بمصر فى ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثمانى . واهتم بدراسة بعض تلك الحروب وأتقن أساليب المماليك فى ركوب الخيل واستعمال السيف[(١)] .

ثم جاء الفرنسيون وعُين لمرافقة الجنرال ديسيه فى فتح الصعيد وهنا أيضاً رفض يعقوب أن يقصر همه على ما عُيِّن له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسائل بل راقب سير الحرب ، وحارب مرة من المرات تحت عين ديسيه نفسه على رأس طائفة من الفرسان الفرنسيين جماعة من المماليك وأبلى بلاء حسناً حمل قائده على تقليده سيفاً[(٢)] ولم يك المعلمون الأقباط يقلدون السيوف بل يكسون الفراء أو ينفحون بالمال .

وتعلق يعقوب بديسيه — السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد — تعلقاً خالصاً[(٣)] وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى تكوين يعقوب جديد . قال بليار — وكان من ضباط ديسيه فى حملة الصعيد — يصف فترة من الفترات التى انتهزها القائد لاراحة عسكره : « أقمنا فى سيوط وكنا نجتمع كل مساء فى منزل ديسيه ، وكانت أحاديثنا تدور حول موضوعات شتى . وكان كل منا يدلى برأى أو آراء فى السلم والحرب وفى النظم والتواريخ »[(٤)] .

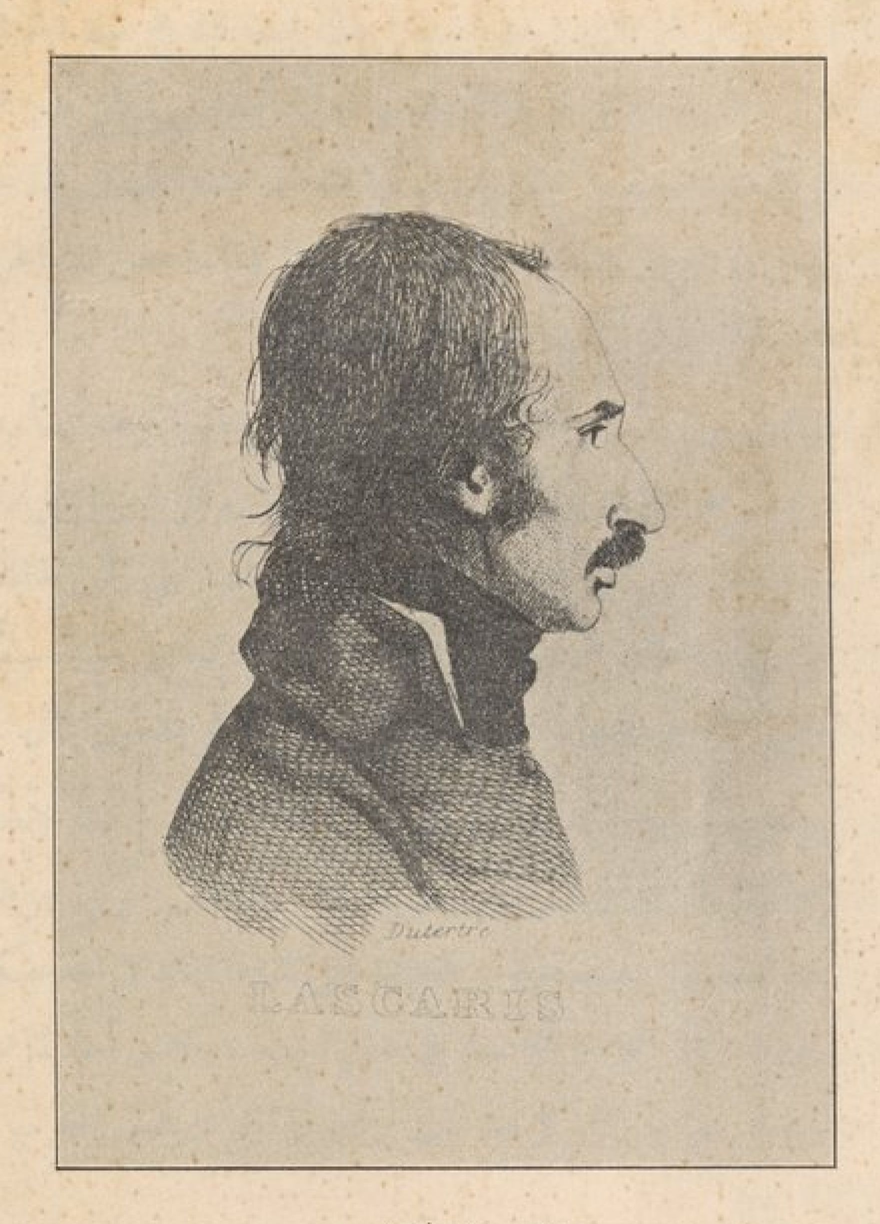
---

1. Denon: "Voyage dans la basse et la haute Egypte pendant les Campagnes du général Bonaparte," an X (1802). Tome I Texte. Explication des Planches, p. XXXIV.
2. Homsy: "Jacob", p. 60.

(٢) آل هذا السيف فى النهاية للمسيو حمصى وتجد رسمه فى كتابه فى صحيفة ٦٩

(٣) لما قتل ديسيه فيما بعد فى واقعة مارنجو وبلغت الأنباء مصر حزن يعقوب حزناً شديداً وكتب للجنرال مينو يبلغه استعداده لدفع ثلث نفقة الأثر الذى أزمعت اقامته لتخليد ذكرى ديسيه . Homsy, p, 115.

4. Belliard: "Mémoires," t. III. p. 213. (٤)



الفارس لاسكاريس

نقلا عن مجموعة الرسوم التى عملها الرسام Dutertre للـكثير من رجال الحملة الفرنسية وتوجد نسخة من هذه المجموعة فى كتب الأمير ابرهيم حلمى بمكتبة الجامعة المصرية وهناك بحث مفصل فى ديترتر ورسومه فى مذكرات E. De Villiers du Terrage طبعة سنة ١٨٩٩ ص ٣٥٥ — ٣٦٠

ولا بد أن يعقوب استمع لكل ما كان يدور وفهم القدر الذى استطاع أن يفهمه ولا بد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار فى نفسه وكشف له عن عالم من المعانى غير الذى نشأ فيه وعرفه . و يعجز يعقوب عن الافصاح عما يجول فى خاطره و يقيض الله له رجلاً من أغرب أهل عصره يتولى عنـه التعبير . ذلك الرجل هو الفارس ثيودور لاسكاريس دى فنتميل .

*
* *

الفارس لاسكاريس

رددت ذكر لاسكاريس هذا كتب الرحلات . وأذاع أمره لامارتين فى قصة « فتح الله الصغير بين بدو الصحراء »[1] . واقترن اسمه أثنـاء إقامته بلبنان باسم سيدة انجليزية نبيـلة لا تقل عنه غرابة أطوار وهى ليدى هستر ستانهوب حفيدة الوزير الكبير شاتهام وربة بيت خالها وليم پت مدة وزارته . تركت انجلترة وقضت باقى أيامها فى لبنان . ولا يعرف التاريخ لِمَ كان ذلك . أكانت هجرة نفس أبية إلى حيث الحرية التامة ؟ أم كان ذلك لمس ظهر فيها شذوذاً وتجلى فى جدها وخالها عظمةً وزعامة ؟ ومهما يكن من الأمر فقد تركها التاريخ حتى الآن لأهل القصص[2] .

وكاد يترك لاسكاريس أيضاً للمصير نفسه . وقد تمنى باريس لو تولى پيير بنوا كتابة سيرته كما يكتب بنوا السير[3] . ولكن أنقذه للتاريخ محقق فاضل هو المسيو أوريان فكتب فصلاً ممتعاً تتبع فيه هذه الحياة الضالة فى البر والبحر ، فى الغرب والشرق[4] . وليس هذا بالأمر اليسير .

ثيودور لاسكاريس من بيت إيطالى نبيـل يتصل قديماً بقياصرة بيزنطة . دخل هو وأخوه فى سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزر مالطة إلى

(١) 1. "Récit du Séjour de Fathalla Sayeghir chez les Arabes Errants du Grand Désert."

(٢) مثال ذلك 2. Paule Henry—Bordeaux: "La Circé du Désert", "La Sorcière de Djoun."
Pierre Benoit: "La Chatelaine du Liban."

(٣) 3. Maurice Barrès: "Une Enquête aux Pays du Levant," t. II pp. 205 — 206.

(٤) 4. Auriant: "Mercure de France," 15 juin 1924.

أن انتزعها بونابرت منهم فى طريقه إلى مصر فى ١٧٩٨ . درس فى صباه الموسيقى وفنون العمارة وقرأ كل ما استطاع أن يقرأ وغذى بهذه القراءات خيالاً قوياً . وكان ذا نفس أبية تواقة للعلا يريد أن يخلد اسماً خليقاً بسليل القياصرة . ولكن حظه كان الخمول والفقر والتنقل من مكان لآخر . وانتهى به المطاف إلى مصر يكسب قوته بتعليم الفرنسيه لاسمعيـــل ابن محمد على فاتح السودان ثم الموت فى القاهرة فى سنة ١٨١٧ فى ظروف مريبة(١) . وقدر له أن يموت كما بدأ وكما وصف نفسه . « صاحب مشروعات » .

تحقق الكثير من هذه المشروعات فيما بعد على أيدى أفراد وحكومات . ولكنها فى أيام صاحبها كانت سابقة لأوانها . وكان شذوذ لاسكاريس فى أطواره - شذوذ ظهر فى أخيه جنوناً - وتعدد المشروعات وتنوعها مما لايبعث على الثقة فيه . ومما يعزينا أنه وجد بعض السلوى أو السعادة فى الخلو إلى نفسه و إلى مشروعاته . وقد جاء فى كلام له : « كل إنسان فى هذا العالم يسلك الطريق الذى هيأه له القدر . واحد من الناس يفتح الممالك و يدوخ البلدان ، وآخر يصنع النعال . و بعض الناس ينشئون الدول و يشرعون لهـا الشرائع ، والبعض منتهى جهدهم أن يكونوا أباء أطفال . . أما أنا فأحسن صنع المشروعات . أخرج نفسى من عالم الحس وأعمل فى مشروعاتى وأترك لخيالى التغلب على ما يعترضها من العقبات . ما أجمل الخيال ! أجد فيه ما أظنه السعادة »(٢) .

---

1. Roussel (Consul de France en Egypte) au Duc de Richelieu, (١)
   23 avril 1817,
   Driault: "La Formation de l'Empire de Mohammed Ali, p. 53.

قيل أن لاسكاريس كره منه تدخله فى المسائل السياسية وأنه سق سما وأن لبوغوص يوسف أحد رجال محمد على نصيباً فى هذه النهاية . راجع فى هذا أيضاً :

Forbin: "Voyage au Levant," p. 98.
Roussel au Duc de Richelieu. 22 juillet 1817,
Driault: Op. cit. pp. 65—67.

ومهما يكن من الأمر فلا بد من أن نذكر أن الناس فى تلك الأيام كانوا سريعين الى تصديق دعوى التسميم عن كل من مات موتاً فجائياً . وسنذكر فى كلامنا عن موت يعقوب ما أشيع من أن القبطان باشا قد سقاه سما قبل ارتحاله عن مصر (ص ٣٤)

2. Rousseau: "Kléber et Menou," p. 333 note 1. (٢)

رجل هذا حاله تضيق به مالطة و يضيق ذرعاً بالفرسان . تركها وتبع بونابرت إلى مصر . حيث تقلد بعض المناصب الإدارية . تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جوارى أحد الأمراء وأطلق لخياله العنان فى هذا الوادى التاريخى الرحيب .

وفى مصر فكر وكتب فى طرق حكمها . ودرس فكرة اقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل فى رأس الدلتا . وعندها يقيم عاصمة البلاد تحت اسم مينوپوليس اجلالاً للجنرال مينو ، يحميها الماء من جوانب ثلاثة وتجتذب اليها خيرات الوادى من منابع النيل (١) . هذا الاجتذاب والتقدم نحو منابع النيل من مشروعات لاسكاريس العزيزة . ألا يمكن أن نجد مغزىً خاصاً فى أن اسمعيل فاتح السودان كان تلميذاً للاسكاريس قبيل الفتح ؟ وقد ثبت أن المعلم صرف فى بث هذه الأفكار وما يماثلها فى تلميذه اكثر مما صرف فى تعليمه تصريف الأفعال .

ورأى لاسكاريس أن مصر يجب أن تستقل وأنها خليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها . ورأى أن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر اذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب وأن تعدها بحيث تكون العنصر المرجح فى تقاتل العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد . وأشار أيضاً بأن يترك الفرنسيون اذا ما اضطروا للجلاء ذخيرة حربيـــة وقوة فرنسية يظهرون أنها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش و يدعونها تنسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم (٢) .

وقد اجتذب لاسكاريس الى مشروعه هذا فرنسيين آخرين سجل التاريخ من أسمائهم ما رسل المستشرق والضابط ديپا حاكم القلعة . واتصل بالمصرى يعقوب وجعل فرقته القبطية قاعدة الاستقلال (٣) . وحاول أن يقنع مينو بكل هذا ولكنه

1. Reynier: " Mémoires ", t. II, p. 400. (١)
Auriant: " Mercure de France ", 15 juin 1924, pp. 582—583.

2. Auriant: Op. cit., pp. 585—586. (٢)

3. Auriant: Op. cit., p. 581 note 2. (٣)

لم يقتنع . اذ حالت دون اقتناعه قلة ثقته بالفارس و بالأقباط عامة و يعقوب خاصة وسمح لنفسه فى اكثر من مرة بمداعبة لاسكاريس والسخر منه .

كتب له : « هل تذكر أيها المواطن قصة ابن كريبيون ؟ أراد الابن أن ينشىء ديناً جديداً . فرفع الأب صليباً وقال انظر يابنى ماذا فعلوا به(١) »

ولكن مينو مضى فى الاستفادة من لاسكاريس و يعقوب : الأول لاتصاله بالمصريين والثانى لمهارته المالية وجنده القبطى(٢) .

***

وجاء وقت الجلاء وسلمت الحامية الفرنسية المرابطة فى القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للانجليز والعثمانيين . وكان من شروط التسليم أن يكون لأى مصرى أراد حق الخروج مع الجيش الفرنسى دون أن يتعرض أحد ممن تركهم من أهله لأذى فى النفس أو المال وألا يؤذى أحد ممن خدم السلطات الفرنسية وآثر أن يبقى فى مصر بعد زوال أمرها(٣) .

وأرسل ابراهيم بك أماناً للأقباط الذين ينطبق عليهم هذا الشرط الثانى فخرجوا اليه وسلموا وعادوا الى دورهم(٤) . أما يعقوب فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين والظاهر أنه حاول أن يستصحب عدداً كبيراً من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته فقد جاء فى الجبرتى فى وقائع صفر ١٢١٦ : « أما يعقوب فانه خرج بمتاعه وعازقه (كذا) وعدى الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا الى قائمقام (أى بليار) و بكوا وولولوا وراجعوه فى ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فانهم فقراء وأصحاب مصانع ما بين نجار

1. Menou à Lascaris 21 messidor an VIII (10 juillet 1800). (١)
Rousseau : "Kléber et Menou," p. 333.

2. Auriant : Op. cit. p. 589. (٢)
Homsy : Op. cit. p. 121.

(٣) تجد هذين الشرطين كما أعلنا لأهل القاهرة فى الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٢

(٤) الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٦

و بناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم بأنه يرسل الى يعقوب أن لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه[١] » . ولم يخرج معه إلا أهله ، زوجته مريم نعمة الله و بنته مريم وأخوه حنين وابنا أخته ولقبهما سيداروس[٢] . وكان فى الخارجين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين و بعض مسلمين ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذى طلق زوجته و باع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله . وخرج أيضاً كثير من نصارى الشوام والأروام مثل يني و برطلمى (فرط الرمان) وغيرهما[٣] .

لم يبق يعقوب بمصر يعمل فى تقرير مصيرها كما حسب . وليس أمامنا إلا أن نعلل ذلك بأسباب لا بأس بها . أولها مارآه من تشتت الجند القبطى وعزم بنائيهم ونجاريهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم . ثانيها ان القيادة الفرنسية لم تُعِد شيئاً ما لمستقبل الفرقة القبطية ، ولا لمستقبل النفوذ الفرنسى فى مصر . بل كان كل همها الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب . وربما كان سبب هذا الاهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسى الى قسمين . قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الاسكندرية تحت القائد العام مينو . ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعباً . وسلم بليار القاهرة فى اتفاق عقده مع الأعداء . وأعقبه تسليم مينو[٤] . أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير : السعى لدى الحكومات الأوربية لتحقيق استقلال مصر . ولا أظن أن خروج يعقوب كان للخلاص بنفسه فمثله ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المنتصرين . وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء فى مصر ووعده ومناه[٥] ولكنه رفض وآثر الرحيل للعمل فى ميدان جديد .

☆
☆ ☆

(١) الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٦

(٢) 2. Homsy: Opt. cit. p. 133.

(٣) الجبرتى جزء ثالث ص ١٩٧

(٤) عن خروج الفرنسيين من مصر انظر 4. Ghorbal: Op. cit. ch. VIII

(٥) 5. Homsy: Op. cit. p. 131.

مشروع استقلال مصر

ركب يعقوب السفينة الحربية الانجليزية پلاس وربانها أدموندس . وكان على ظهرها أيضاً الفارس لاسكاريس . وقد عرف أدموندس قدر يعقوب وأنه زعيم فى عشيرته وأن الفرنسيين لقبوه « جنرالاً » حرصاً على نيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا يعقوب للتحدث معه فى شئون مصر وقال له أنه يعتقد أن حكومة العثمانيين فى مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسى إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى وأنه صدق ما أدعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأروبية ولم يكن يدرك إذ ذاك مدى القوة البحرية الانجليزية . ثم قال أنه يرجو أن يسعى لدى الحكومات الأروبية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأروپا قد تنفع فى هذا السبيل ، على أنه يعلم أن إدراك الغاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الانجليزية[١] .

هذا مجمل ما قرره يعقوب لأدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين الرجلين أن يعقوب على رأس وفد مصرى اختاره أعيانها ليفاوض الحكومات فى أمر الاستقلال .

بعد هذا الحديث اشتد المرض على يعقوب وتوفى فى السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١ والسفينة على مقربة من سواحل الأناضول الجنوبية الغربية وقد راعى أدموندس مقامه ورجاء أهله فلم يلق جثته فى البحر بل وضعها فى دن من « الروم » حفظها حتى مرسيليا حيث دفنت . وفى إحدى مقابرها يرقد الآن الجنرال يعقوب فى قبر معروف[٢] .

ولم يكن موته نهاية الأمر . فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكرة مفصلة بالموضوعات التى تحدث فيها يعقوب مع أدموندس وسلمها فى

(١) راجع الملحق الأول لهذه الرسالة

(٢) عن موت يعقوب وتحقيق موضع قبره راجع Homsy: Op. cit. pp. 134—145.
روى الضابط الفرنسى Vigo Rousillon فى مذكراته :
Revue des Deux Mondes, 15 août 1890.
أنه حضر الحديث بين القبطان باشا ويعقوب وأن يعقوب شرب قهوة قدمها له خادم الباشا وأنه فى اليوم التالى شعر بألم معوى شديد وتوفى بعد ساعتين والسفينة التى كان عليها على مقربة من رشيد . ولا صحة لهذه الرواية بالمرة

مرسيليا لذلك الانجليزى لتبليغها لحكومته . فتعهد أدموندس بذلك و بالمحافظة على سر هذه الأحاديث عن نفسه وعن حكومته .

ما رأى أدموندس فى كل هذا ؟ قال أولاً أنه لا يملك تحديد مدى التفويض الذى تكلم عنه لاسكاريس وثانياً أنه لا يدرى ان كان عضواً فى الوفد أو سكرتيراً مترجماً له . وأنه على كل حال لم يستطع أن يصفه إلا بأنه رجل « خيالى » .

قام أدموندس بما وعد به فأرسل لحكومته مذكرة استقلال مصر التى أعدها لاسكاريس[1] .

بدأ الكاتب باهداء التحية للورد الأول للبحرية الانجليزية (الموجه اليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وأن ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل ما يجدر بلورد انجليزى أن يسعى له . ثم أطنب فى وصف عظم هذا المشروع – تحقيق استقلال مصر . وأن هذا الاستقلال يبدد سحب الجهل التى تكاثفت على هذا الوادى الذائع الصيت حيث مهد الحضارة ، فيه تعلم الأغريق وعن الأغريق ورثت أوروبا علومها وفنونها واستنارة أهلها . ألا يثير ذلك فى نفوس الغربيين شيئاً من عرفان الجميل فيردوا لمصر الاستقلال الذى به تستعيد ما كان لها ؟

ثم بين لاسكاريس أن مصر المستقلة لن تضر أحداً . وأن استقلالها وقد أصبحت موضع أطماع الدول خير حل للمسألة المصرية . تلك المسألة التى أثارتها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها . وذكر أن مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الأخير فى تاريخ بلاده وعبر عنه فى قوله « أن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا عن السعى للاستيلاء عليها » .

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الانجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع فأكد صداقة المصريين للأمة الانجليزية بعد أن عرفوا جنودها و بعد أن خبروا الحكم الفرنسى وأن سيدة البحار لا بد وأن تسيطر بنفوذها على مصر وتكون أكبر من يستفيد من موقعها الجغرافى .

---

(١) راجع الملحق الثالث لهذه الرسالة .

ا ثانى

ولم يغفل لاسكاريس الكلام عن أمرين جوهريين . وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما فى مذكرته : الأول نوع الحكومة المصرية المستقلة ، الثانى ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها . أما عن نوع الحكومة فاكتفى بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وانها بذلك تنال احترام الأمة وطاعتها وحبها كما أحب أهل الصعيد فى الماضى القريب حكم العربى همام وكان عادلاً حازماً[1] أما عن وسائل الدفاع فنجده يقرر أن الحكومة الوطنية لن تقوى على صد إعتداء أوروبى إلا بعد مضى زمن طويل ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حربية أوروبية و ببذل المال لرجال الباب العالى .

وتؤكد المذكرة فى النهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر وأن هؤلاء الأنصار يخفونها حذر الموت ، و يطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين إذا ما رفضت الدول إنشاء دولة مصرية مستقلة .

أما عن خطة « الوفد المصرى » فى القريب فانها ستكون السعى لدى الحكومة الفرنسية لاقناعها بقبول قاعدة الاستقلال فى مفاوضاتها مع الحكومة الانجليزية على مصر . و يرجو لاسكاريس أن لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسى مما يحمل الحكومة الانجليزية على رفضه حذر دسيسة سياسية فرنسية . و يطلب فى النهاية أن تكون مخابرات انجلترة مع الوفد شفرية وعن طريق الكونت أنطون كاسيس المقيم فى تريستا[2] .

---

(١) كسر شوكة همام على بك الكبير . وتوفى همام فى سنة ١١٨٣ هـ . وترجمته فى الجزء الأول من الجبرتى ص ٣٤٥ — ٣٤٧

2. Il Signor Conte Anton Cassis.

(٢) تحت هذا الاسم ولقب النبل الغربيين يستتر مصرى قبطى اسمه أنطون قسيس . عمل فى ادارة الجمارك فى الاسكندرية أيام المماليك . ولما أرادت حكومة الأمبراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تفتح طريق مصر لتجارة الهند لمصلحتها اجتذبت لتحقيق ذلك أنطون قسيس هذا فمنحته حمايتها وأنعم عليه الأمبراطور يوسف الثانى بلقبي بارون وكونت فى الأمبراطورية . ولما فشل هذا المشروع النمساوى وعلا نفوذ أعدائه غادر الكونت كاسيس مصر واتخذ تريستا موطناً له وكان هذا فى ١٧٨٤ راجع عن هذا :

F. Charles — Roux : "Autour d'une Route", pp. 156—159.
Hoskins : "British Routes to India" pp. 23, 26—27.

ونجد لاسكاريس فعلا يقدم للقنصل الأول بونابرت مذكرة موقعاً عليها من « نمر افندى » بالنيابة عن الوفد المصرى وهذه المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسى ومن تفضيل المصريين للانجليز ذلك التفضيل الوارد فى المذكرة لانجلترة على أنها تتفق معها فى الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والانسانية ولمجد بونابرت(١) .

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا — تالليران — يقرر فيها الغرض الأسمى و يعتذر عن الاجمال تاركاً التفصيل إلى أن يستقبلهم الوزير فى باريس إذ العرب يجيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة . وطلب من الوزير أن يستقبلهم بزيهم الشرقى إذ أن المسلمين منهم يعز عليهم إبدال غيره به ، فضلاً عن أن هذا الزى يثير فى نفس بونابرت ذكرى فتوحه و يعرف من لم ير مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله(٢) .

*
* *

المسألة المصرية ومعاهدات الصلح ١٨٠١ — ١٨٠٢

لا اللورد الأول للبحرية الانجليزية ولا القنصل الأول ولا وزير الخارجية الفرنسية اهتم بما فى هذه المذكرات بل أودعوها سجلات الحكومة

وفى « مقدمات الصلح » بين فرنسا وانجلترة اتفق على إعادة مصر للدولة العثمانية . وأدمج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية : معاهدة أميان . وفى سياسة الحكومتين قبل أميان و بعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالمماليك . وحتى فى هذا لم يكن الاهتمام بها إلا من حيث تأثيرها فى تسهيل — أو منع — وقوع مصر فى حكم انجلترة أو فى حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها فى رفاهية أو سعادة الشعب المصرى(٣) .

لم يكن إذن لهذه المذكرات أى أثر واقعى . ولا نجد فى الأوراق ما يدل على

(١) أنظر الملحق الثالث لهذه الرسالة (٢) أنظر الملحق الرابع لهذه الرسالة

(٣) عن معاهدات الصلح أنظر

Ghorbal. "The Beginnings of the Egyptian Question" ch. IX.

وجود تفويض لوفد مصرى . وعلى فرض وجوده فمن الثابت أنه لم يشترك فى منحه أى شيخ من العلماء والا لوجدنا فى الجبرتى ما يدل عليه . وليس هناك أيضاً ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من عظماء الأقباط فقط . إذ أن سيرتهم لا تحملنا على الاعتقاد بأن الفكرة الاستقلالية جالت فى أذهانهم . وإنما التفويض الوحيد الثابت حصول يعقوب عليه كان لمطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرضه هو وجرجس جوهرى وآخرون للجنرال مينو[1] .

يحق لنا بعد هذا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخية والفلسفية من أفكار لاسكاريس . وأن يعقوب لم يقرر إلاَّ الفكرة الاستقلالية .

رغم هذا لا تخلو هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه فى أيام أقرب الينا من سنة ١٨٠١ : فى اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال وفى توطيده بالاعتراف الدولى ، وفى تبرير طلب الاستقلال بالتنويه بمجد مصر ، و بأن عظمة الماضى تبعث على الأمل فى عظمة المستقبل ، و بأن مصر بها من الموارد فى المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة ، وأخيراً بأن موقعها الجغرافى يجعلها موضع التنافس وأن الدولة التى تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم فى مصالح الدول الأخرى الحيوية وخير الجميع فى استقلالها .

*
* *

خاتمة المهاجرين المصريين

كان نصيب مشروع ١٨٠١ الأهمال . وكذلك كان حظ أصحابه . وقد عرفنا مآل يعقوب ، أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل . وظل

(١) اشترك فى هذا القرض يعقوب وجرجس جوهرى وأنطون أبوطاقية وفلتاؤس وملطى (Homsy : op. cit. 119) وقبيل رحيل يعقوب خوله شركاؤه مفاوضة الحكومة الفرنسية فى فرنسا فى رد مالهم .(Homsy : op. cit. 130) وحال موت يعقوب دون ذلك . ثم قام حفيد لأنطون أبى طاقية بالمطالبة وذهب بنفسه الى باريس وكان ذلك أيام نابليون الثالث . ورفضت حكومة الامبراطورية أن تعترف بصحة الدين وسوت المسألة بأن صرفت لحفيد أبى طاقية ما تكلفه من نفقة فى المطالبة (٤٥٠٠ ليرة فرنسية) ومنحته التبعية الفرنسية (رمزى تادرس : الأقباط فى القرن العشرين جزء رابع صفحة ٩٦)

منهم فى آروپا آخرون قامت بينهم القضايا والدعاوى ووقع اكثرهم فى الفقر والفاقة فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشاً مـــدة طويلة وانتهى أمرهم بالاندماج فى الفرنسيين . ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا لليوس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى (١) .

(١) تجد عريضة استجداء من المهاجرين المصريين فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى السجل الخاص بالدولة العثمانية تحت هذا الرقم Turquie, "Supplements", vol. 203 . تجد مثالاً من تقاضيهم فى النزاع بين أرملة يعقوب وأخيه حنين على تركة الجنرال فى Homsy, op. cit. p. 70.

وصل خبر هذا النزاع الى مصر . الجبرتى جزء ثالث ص ٢٨١ فى حوادث رجب سنة ١٢١٨ أما عن المعاش الذى أجرته الحـكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين فالظاهر أنه استمر يجرى على ورثتهم . من ذلك نجد جبرييل ابرهيم وهو حفيد أخت يعقوب يتمتع بمعاشه حتى موته فى ١٨٧٨ .(Homsy, op. cit. p. 67)

ومما يصح ذكره أيضاً عن المهاجرين المصريين أن الرحالة الهندى المسلم الفارسى الثقافة ميرزا أبا طالب خان أثناء سفره من باريس الى مرسيليا فى عودته من انجلترة الى وطنـــه من طريق القسطنطينية والعراق التقى فى عربة السفر بحسناء مصرية مسيحية ذاهبة الى مرسيليا وأعجب بشجاعتها فانه لما حاول بعض المسافرين مداعبتها رغماً عنها أوسعتهم سباً بالعربية . وحال أبو طالب بينهم وبينها ولما قابلته فى مرسيليا سهلت عليه صعاب سفره وكان هذا فى ١٨٠٢ (أنظر
Mirza Abu Talib Khan : Voyage en Europe etc. Traduction française, Paris 1831. t II. 69—70.

أما عن اليوس بقطرفكان سنه وقت نزول الفرنسيين نحو الخامسة عشرة . والظاهر أنه ابتدأ دراسة الفرنسية إذ ذاك وعمل فى الترجمة أثناء الاحتلال الفرنسى . ثم هاجر من مصر عند نهاية الاحتلال الفرنسى وليس هناك ما يثبت أنه ابن أخت يعقوب . وأقام بقطر فى مرسيليا حتى سنة ١٨١٢ مشتغلا بدراسة الفرنسية وفى تلك السنة استقدمه وزير الحربية لباريس واشتغل أول الأمر بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحملة إلى اللغة الفرنسية وعاون فى تحقيق الأسماء العربية اللازمة للخرط الجغرافية المنشورة فى كتاب وصف مصر . وكان أثناء ذلك يعد قاموسه الفرنسى العربى . وفى سنة ١٨٢١ عين لتدريس العربيـــة العامية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومات فى نفس السنة وهو فى السابعة والثلاثين وقد تمكن من تجهيز القاموس . ووقف على طبعه خلفه فى تدريس العربية المستشرق Caussin de Perceval وقدم له بترجمة لبقطر منها استخلصنا الحقائق السابقة .

وقد طبع هذا القاموس أيضاً فى القاهرة فى مجلدين فى سنة ١٨٧١ وقام على طبعه عبيد غلاب خريج مدرسة الألسن . وفى كتب الأمير ابرهيم حلمى بمكتبة الجامعة المصرية توجد هذه الطبعة من القاموس كما توجد أيضاً طبعة باريس الرابعة فى مجلد واحد وتاريخها ١٨٦٩ وقد وقف على هذه الطبعة الرابعة Armand Pièrre Caussin de Perceval ابن المستشرق السابق الذكر .

وظل لاسكاريس يضرب فى بلاد الشرق سنين . يجود ذهنه بالمشروع تلو المشروع أحياناً لاصلاح الزراعة فى بلاد القوقاز ولبنان وأحياناً لتدبير مستقبل الجبل السياسى أو لتسوية مشكلة الوهابية . وهو أينما حل يحوطه جو من الظنون والارتياب من جانب الرجال الرسميين وحظه الحزن والفاقة . إلى أن هبط مصر يرتزق من تعليم الفرنسية لاسمعيل بن محمد على و بقى كذلك إلى أن مات فى ١٨١٧ . وانتهى كما بدأ « صاحب مشروعات » . إلا أنه على الرغم من ذلك يحق علينا أن نحيى ذكرى من عرف كيف يجيد الكلام فى استقلال مصر وكيف يبنيه على مبرر الاستقلال الحقيقى : الكرامة الانسانية . فكان بذلك معبراً بلغة العصر الحاضر عما جاش فى نفس المصرى يعقوب

كذلك كانت بداية الفكرة الاستقلالية ، أما تاريخها فهو تاريخ مصر من أيام محمد على حتى اليوم .

الملحق الأول[1]

من القبطان جوزيف أدموندس ربان السفينة الحربية پالاس
للأرل أوف سانت فنسنت اللورد الأول للبحرية الانجليزية

على ظهر السفينة پالاس
جزيرة منورقة فى ٤ اكتوبر ١٨٠١

سيدى

استبحت لنفسى أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابى هذا إعتقاداً منى بأنه قد يهم حكومة بلادى أن تعلم أن أشخاصاً يسمون أنفسهم بالوفد المصرى يقيمون فى باريس فى الوقت الحاضر.

كان ممن ركب فى مصر السفينة پالاس تحت أمرتى رجل قبطى ذو سمعة حسنة جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير. وقد منحه الفرنسيون لقب جنرال لينالوا تأييده.

عُنيت بعض العناية بهذا المنفى السيىء الحظ مما جعله يحادثنى فى شئون بلاده. وقد صرح لى بأنه يعتقد أن أى أنواع الحكم فى مصر أفضل من حكم الترك لها وانه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عله يخفف عن مواطنيه ما قاسوه وان الفرنسيين خدعوهم وان المصريين فى الوقت الحاضر يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك وانه لم يفقد بعد آماله فى خدمة بلاده وان ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا. وقال أيضاً أن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة فى أوربا وأنه لم يعرف إلاَّ قليلاً عن قوة انجلتره البحرية ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة انجلتره فان رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر لن تتحقق. وأضاف صديقه لاسكاريس

1. Captain Joseph Edmonds of His Majesty's Ship Pallas to the Earl of Saint-Vincent first Lord of the Admiralty. Minorca 4th. October 1801.
Foreign Office Records, 78. Turkey, vol 33.
Traduction française, Douin, "L'Egypte Indépendante" pp. 1—3.

(وهكذا وصف نفسه) وكان يترجم أقواله لى أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفداً فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية فى أمر استقلالها . وأثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان (لاسكاريس) بتحرير مذكرات أحاديثنا المرفقة بكتابى هذا . وقد أعرب لى الجنرال قبل موته عن رغبته فى أن أبلغ موضوع هذه الأحاديث لقائد القوات البريطانية الأعلى كى تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته . وقد قرر لى المسيو لاسكاريس أن الوفد لم يزل باقياً وان المفوضين الآخرين على ظهر السفينة پالاس لا يزالون أعضاء فيه . هذا وانى لم أتمكن من أن أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس إلا سكرتيراً مترجماً له . وأعتقد من كلامه أنه رجل خيالى(١) . وأظنه بيدمونتى الأصل وسمعت أنه من أولئك الفرسان الذين تركوا جزيرة مالطة وتبعوا جيش بونابرت . وقد أعطيت ميثاق للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغنا إياه استعمالاً يؤذيهم . هذا ولما كان من المحتمل جداً ذهاب هذا الوفد الذى لا يمكننى تقدير مدى ما بيده من تفويض للاقامة فى باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والأحاديث مباشرة . إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن أجد فرصة لابلاغها أولاً لرئيسى اللورد كيث . وأرجو أن تتنزلوا فتقروا مسلكى هذا .

ولى الشرف . . . الخ

الملحق الثانى(٢)

مذكرات مرفوعة للقبطان أدموندس لتذكره فى الوقت المناسب له برؤوس أهم الموضوعات التى تبادلناها فى أحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

---

1. From his conversation I believe him to be of a speculating mind."

(٢) المذكرات التى تكون هذا الملحق مرفقة بالكتاب السابق وهى فى نفس السجل الذى بيناه عن الملحق الأول .

Texte français. Douin, op. cit. pp. 5—12.

بهذه المذكرات « بياض » فى عدة مواضع وبها أيضاً جمل تحتها خط وهذه المواضع مبينة هنا كما فى الأصل .

(١)

الخطاب المرفقة به هذه المذكرات موجه للورد النبيل (١) . وقد يظهر لأول وهلة أنه ليس إلا رجاء بسيطاً عادياً فى الاهتمام بنا معشر المصريين التعساء . ولكنه يجب أن يعتبره فى الحقيقة ملخص الأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة هذا ولما كان الاسهاب فى شرح خطتنا فى الوقت الحاضر أمر أقل ما فيه الرعونة فان هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الأقل لتذكيرك بأهم موضوعات أحاديثنا ، ومتى حان زمن إبلاغك إياها إما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيتك يدعون لحسن فطنتك بعثه على الاهتمام بأمرهم . حتى يكون لنا مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لانجلتره مسند نستند إليه لدى حكومته . وليثق بأنه سينتصر لقضية فيها منافع لأمته . وأى قضية أليق بسعى لورد نبيل مثله !

(٢)

و إذا سلمنا بأن ما سيعرضه الوفد المصرى لدى الحكومات الأوربية على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الأهمية أمام أعينها فلتعترف معنا على الأقل — أيها القبطان — أن الدول لن تعمل أبداً عملاً أمجد وأنبل من أن تبدد بقرار سياسى واحد ظلمات الجهل والوحشية التى تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت . تلك البلاد التى كانت مهد استنارتنا وعلومنا وفنوننا . تلك البلاد التى يمكن القول عنها إجمالاً أنها كانت موضع قيام الحضارة التى نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت لنا . و إذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعوراً بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الأقل عطف الدول الأوربية عليها حتى إذا ما كان ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى جميع الدول التى تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها فى مصالحها .

(١) الظاهر أن لاسكاريس ظن أن أدموندس قد يكتب أولا لرئيسه المباشر اللورد كيث لا مباشرة الى اللورد الأول للبحرية كما فعل

(٣)

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترضى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل (للمسألة المصرية) . . . وفى هذه الأثناء قد تقترحه عليها الحكومة الفرنسية . عندئذ يجب على الحكومة الانجليزية أن تعلم أن الاقتراح نتيجة جهود الوفد المصرى فعليها إذن أن لا يريبها أمره . . . فان المصريين[١] . . . ولا نظن أن فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسى إلاّ على سبيل المجاراة والواقع أن تحقيقه ليس فى صالحها كما هو فى صالح انجلتره . ومما لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال على ما كانت عليه من الرغبة فى تملك مصر .

(٤)

تتداعى الامبراطورية العثمانية فى جميع أجزائها للانحلال . ويهم الانجليز إذن قبل حدوث هـذا أن يدبروا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستفادة من هـذا الحادث المهم عند وقوعه . وإذا تبين لهم استحالة استعمارهم مصر — كما استحال هذا على فرنسا — (فلهم عوضاً عنه) خضوع مصر المستقلة لنفوذ انجلتره صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها . وليس من شك فى أن الاستقلال يعيد لمصر رخاءها . ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية تستمد غناها من الحاصلات الوفيرة التى تنتجها أرضها الخصبة ومن كونها المخرج والمدخل الوحيدين لتجارة افريقية الوسطى . ولا بد من أن انجلتره بحكم مركزها فى الهند تهتم جداً بالمتاجرة مع مصر وما حولها من المناطق فتستفيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا .

(٥)

وكان مراد بك يقول - وربما كان على حق فى قوله - أن كفار الغرب (كذلك سمى الأمم الأوربيـة) قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وان الكل يسعى لامتلاكها وأنها ستكون دائماً مثار اختلافهم . قد يقال أن انجلتره لا حاجة بها إلى

(١) جملة غير تامة فى الأصل

ذلك الامتلاك إذ أن سيادتها البحرية تحتم أن تكون كل تجارة مصر فى يدها وأنها بذلك يكون لها ما تريد من نفوذ فى مصر . ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ إذا رجعت فرنسا كما كانت حليفة الباب العالى الطبيعية وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة ارضائها أكثر من ارضاء انجلتره ؟ ألا تذهب الدولة فى هذه الخطة فتغلق أبواب مرافئها فى وجه الانجليز ؟ أليس من الممكن أن يضغط الفرنسيون على الترك براً فيحملوهم على الامعان فى عدائهم للانجليز وتحطيم تجارتهم فى أراضى الشرق الأدنى وفى البحر الأحمر ؟

(٦)

أما عما يختلج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين فمبعثها ما اتبعه هؤلاء من طرق فى حكمهم أثناء احتلالهم البلاد . ولا حاجة بى للكلام فى هذا لأنى أعتقد أنك تتذكر بسهولة مادار بيننا من حديث فيه . كل شىء إذن يبرهن – الأسباب السابقة ، وما يشعر به المصريون نحو الانجليز بعد أن أمكن لهم تقديرهم حقاً – أن مصر المستقلة لا تستطيع إلا أن تكون موالية لانجلترة . فعلى هذه اذن أن تسمح سياسياً على الأقل باستقلالها هذا اذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه . يُملى هذه الخطة ما نتوقعه من حوادث فى المستقبل . . . .

(٧)

فرضنا أن حكومات الدول الأوربيـــة سمحت باستقلال مصر . كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا فى تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التى يفكر فيها الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن أن نلاحظ أن المسألة هنا ليست مسألة انقلاب منشؤه استثارة الأمة واحتكاك آراء فلسفية بعضها ببعض . لا يقوم نظام الحكم الجديد على شىء من هذا . بل تضع قواعده الظروف القاهرة وتخضع

له رعية مسالمة جاهلة لا يعرف أفرادها الآن ، أو يكادون لا يعرفون إلاَّ عاطفتين خلقيتين : المصلحة والخوف . فان أمكن الحكومة الجديدة (وليس هذا بالأمر العسير) أن ترفه من عيش الناس بعض الشيء وأن تزيد كسبهم قليلاً فمن المحقق أنها تجد منهم نصراء متحمسين . أو ليس أى نظام أفضل من الاستبداد التركى ؟ لتكن إذن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة الشيخ همام العربى فى الصعيد (وقد حدثتك عن تاريخه) ولتثق عندذلك بأنها ستُحترم وتُطاع وتحب .

(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوربية ؟ لا نتوقع حدوث شيء من هذا إلا بعد زمن طويل وعند ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وجعله بحيث يستطيع رد الاعتداء . أما ان كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فانا نعتقد أن الدول الأوربية تحظر عليهم مس استقلال مصر . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان المصريين يمكنهم أن يستخدموا جيشاً أجنبياً من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ جندى وينفقوا عليه . ويكفى هذا الجيش لصد الترك عند حد الصحراء ولسحق المماليك فى مصر نفسها ويكون هذا الجيش الأجنبى أيضاً نواة الجيش الوطنى . هذا ولما نعلمه من تأثير الذهب فى العثمانيين وأنهم يعملون أى عمل للحصول عليه فاننا نستطيع ردهم عن مصر ببذله لهم . وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد فى القسطنطينية وتنذرهم بشر مستطير .

وينبغى ألاّ يفوتنا أن نذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوائف وأن هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض فتتكافأ بذلك قواها . وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف على اختلافها ولا ينحاز لواحدة منها دون الأخرى . وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تماماً عن الحكومة التركية فى مصر ولا بد من هذه الحيطة أزاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات . ولو عرف الترك حقيقة الأمر لما ترددوا فى الفتك بأخوان الاستقلال عن آخرهم . والذين هجروا

مصر مع الجيش الفرنسى من هؤلاء الأخوان قد تحدوا غضب الترك (وأمنوه) ولكن اخواننا فى مصر حالهم غير هذه . هم تحت السيف والعصا . فليس أمامهم إلاَّ المواربة والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

(٨)

سيبذل المصريون عامة ووفدهم لدى الحكومات الأروبية (خاصة) كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذى يثقل حمله على بلادهم التعسة . ولكن إذا خاب سعيهم وشاء القدر أن يملك الترك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الاغارات عليها وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتهون فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة أن تدبر لهم ضماناً يقيهم على الأقل ، إذا عادوا لوطنهم ، شر انتقام الترك منهم .

(٩)

هذا ولو أن الوفد المصرى لدى الحكومات لن يعمل إلا فى تحقيق مشروع سياسى فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية (وليس تضميننا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فانا يمكننا البرهنة على صحته) فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سر المفاوضة . لذلك فانا نرفق بهذا « شفراً » يستعمل فى مراسلاتنا عند الحاجة اليه .

(١٠)

ويرى الوفد المصرى حرصاً على تحقيق ما يصبو له من إبلاغ المفاوضة غايتها لزوم كتمان أمر ما فاتحنا كم فيه من ممهدات لها وما قد تبلغونه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى امرىء فى مقدوره عرقلتها . وذلك أن خطة الوفد أن يسعى فى أروبا كى تكون فرنسا البادئة بعرض المقترحات الأولى (الخاصة بالاستقلال) على انجلتره . وتكون انجلتره عندئذ قد اقتنعت (وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا معكم وسعى اللورد) بما فى الاستقلال المقترح من مزايا سياسية فتؤيده . وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد

المصرى لأن يرى الحكومة الانجليزية ترفض المشروع تحت باعث من نفور الأمتين إحداهما من الأخرى أو حذر دسيسة من دسائس الجمهورية (الفرنسية) . . . .

(١١)

هذا وكى تسهل مراسلتنا ونحن فى فرنسا أو فى غيرها من البلاد يمكنك أيها القبطان أن ترسل ما تريد للسنيور الكونت أنطون كاسيس[١] المقيم فى تريستا وهو يتولى إرسال الرسائل حيث يقيم الوفد ، على أن يوضع تحت عنوانه عنوانى . أما ما قد يُرسل لى (من غيركم) من انجلتره فان وصولنا الى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين أقيم . وبهذا يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة (الانجليزية) . ولكن تلزم الحيطة التامة فى هذا الأمر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسية بالمرة .

على ظهر السفينة پلاس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١ .

الملحق الثالث[٢]

من نمر افندى بالنيابة عن الوفد المصرى للقنصل الأول بونابرت[٣]

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الكثير الحب له .

محجر مارسيليا فى أول فنديمير من السنة العاشرة (٢٣ سبتمبر ١٨٠١)

١٨ صفر سنة ١٢١٦[٤]

فى أيام العالم الأولى ، فى تلك العصور البعيدة المجهولة ، عند ما كانت فرنسا

---

(١) عن كاسيس هذا أنظر هامش ص ٣٦ من هذه الرسالة .

2. Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Turquie. "Correspondance", vol. 203. Auriant "Mercure de France", 15 Juin 1924, pp. 593—594.

بهذه الوثيقة أيضاً بياض فى مدة مواضع بيناها هنا كما فى الأصل

3. Nemir Effendi (pas Hemir, comme l'a transcrit M. Auriant) au Premier Consul. Il y a un Lofti (sic. Lotfi) Nemir parmi les émigrés Egyptiens à Marseilles, voir Homsy, op. cit. p. 141.

حرف المسيو أوريان فى نقله هذه الوثيقة اسم الموقع عليها الى « همير افندى » . وقد قرأتها نمير افندى ووجدت فى أسماء المهاجرين المصريين فى مرسيليا اسم لفطى (أى لطفى) نمر وصناعته مترجم لغات شرقية (راجع كتاب حمصى ص ١٤١) . واذا تذكرنا أن النون والميم فى النمر ينطق بها فى بعض اللهجات متحركة بالكسرة سهل علينا فهم كتابة هذا الاسم بالحروف الفرنسية هكذا Nemir

(٤) كذا فى الأصل . و٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١ توافق ١٥ جمادى الأولى

لا تختلف كثيراً عما صورته الطبيعة ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وغابات ، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الاغريق . ثم دار الفلك دورته وشاء القدر أن يفد مصريو اليوم الحاضر أحفاد معلمى الحضارة بالأمس إلى فرنسا وهى تحت حكمك الخالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحبونها و يتعرفوا ما اهتدت اليه من وسائل لا عهد لغيرها من الأمم بها ، تلك الوسائل التى مكنت جمهورية ناشئة من صيانة ما كسبته فى ميدان الحرب بما استحدثته من نظم سياسية جديدة . . . وكما أن سولون عند عودته لبلاده من مصر شرع للاغريق ، كذلك الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيضع لمصر ما ترضاه لها من نظم عند ما يعود لها من فرنسا . يكون هـذا أيها القنصل الأول إذا تنزلت من أجل مجدك ولنفع الجمهورية السياسى فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت فى الماضى أغلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد وأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس . وفى العاصمة سيكون استقبالنا حفلاً شرقياً يجدد ذكرى فتح عظيم نلته ثم فقدته . ولا بد أنك تحس إحساساً شديداً بألم ما فقدت فأمر فى معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة . هذه هى أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقاً به .

عن الوفد المصرى

وكيله

نمر افندى

(حاشية[1]) أغا الانكشارية[2] وعضو الوفد ، الذى عرفتَه أيام أن كنتَ فى القاهرة يرجونى أن أعيد لك ذكره ما شرفته به من عطفك عليه . ن . أ

1. Ce post-scriptum a été omis par M. Auriant dans sa transcription du document. Il se trouve dans le texte original comme suit : —
"L'aga des janissaires et membre de la legation, connu de vous au Kaire, m'ordonne de le rappeler au souvenir des bontés dont il a été honorées par vous". N.E. (١)

(٢) المقصود من هـذا عبد العال أغا الذى ذكرنا خبر وكيفية ارتحاله مع الجيش الفرنسى فى سنة ١٨٠١ — ص٣٣

الملحق الرابع[1]

من نمر افندى لوزير الخارجية الفرنسية (تالليران)

(نفس التاريخ كالملحق السابق)

سينزل فى مرافئ الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذى تم جلاؤه عن مصر . والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم رئيسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية ويرى من واجبه أن يلجأ اليك أيها الوزير لتتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين فى كنفك وتقول له كما يقول بدوى الصحراء لضيفه « كن فى أرضك[2] » .

كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ولكنه كان يسعى فى الواقع لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم أفريقية الوسطى الجذابة الخفية فبذل جهوداً عديدة غير مثمرة ليعلم فى فرنسا شباناً من المصريين وعلى الأخص من القبط فان بطريرك هؤلاء هو فى الواقع بابا الأحباش . لم ينجح الملك فى سعيه هذا . واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه — اللهم إلا الجزء الضئيل منه — الملكية الفرنسية المطلقة وقد بلغت منتهى القوة الاستبدادية . هذا والوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل ما يجول فى نفوس مفوضيه العديدين من شعور بصالح الجماعة وما يملأ أفئدتهم من أمانى وما يملكون من اصالة تدبير ونفوذ

---

1. Nemir Effendi au Ministre des Relations Extérieures, 1 Vend. (١) an X Archives du Ministère des Affaires Etrangères. Turquie. Correspondance vol. 203.
   Auriant: op. cit. pp. 594—595.

(٢) فى الأصل ما يأتى :—

2. “et lui accorder, comme disent les Arabes du désert, votre fiardac d'hospitalité ”.

وثروة و يعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين : الأولى ، سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد ، الثانية ، وضع أملهم فى فرنسا ، اعتقاداً منهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقضى عليها أن لا تخيب أملهم . نتقدم اليك اذن أيها الوزير برأى : تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة عظيمة ، لِمَ لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعوض ما فقدته ؟ أنك ان تفضلت فدعوت الوفد لباريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع انجلتره فأنا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا تحتفظ للأبد بنفوذها السياسى فى الشرق وتدرأ عنه ما قد يفقدها إياه زمنا طويلا من أثر الجلاء عن مصر وما آل اليه أمرها الآن وسعى الدول التى تخشى بحق علو كلمة فرنسا . بل نستطيع أن نؤكد اكثر من ذلك . نستطيع أن نؤكد أن فرنسا اذا أرادت يمكنها بواسطة أمة لن تكون الا موالية لها مد نفوذها نحو أواسط أفريقية . وهكذا يتحول تركَّكم مصر للانجليز من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية .

ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحاضر فائدة فى الاسهاب . فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يبين عن مقاصده ما لا يستطيع فى عشرين مذكرة سياسية . ونحن العرب نقدر فى الكلام على ما نشاء وان كنا فى الكتابة لا نبلغ الا جهد المقل . هذا الى أننا غير غافلين عما توجبه علينا كثرة شواغلك السياسية من الاجمال فى الرسائل . ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا . وان تسمح لنا ان تفضلت باستقبالنا فى باريس أن تقابلنا بزينا الشرقى . فالمسلمون منا يشق عليهم خلع زيهم . وفضلا عن هذا فهذه الأزياء الشرقية قد تذكر القنصل الأول بفتوحه وراء البحار وترضى المستطلعين ممن لم يتبعوه للشرق .

والوفد المصرى يعلم أن وقت القنصل الأول الذى تصدر عن ارادته أمور الحكم حتى فى جزئياتها وتستظل الدولة فى ظله الظليل أثمن من أن يصرفه فى التفكه بقراءة ما يرد اليه من الرسائل الخاصة ولكننا نرجو أن يقدر أن وفدنا جديد فى بابه وأنه يصل الى فرنسا فى ظروف خاصة وان كتابنا له[١] المرفق بهذا له ما له من أهمية فيتنزل لتسلمه منا و يتأمله بحكمته البعيدة الغور .

---

(١) المقصود من هذا الكتاب المنشور فى الملحق الثالث .

تصحيح

نرجو حضرات القراء تصحيح نسخهم على ما يأتي:

ص	س	خطأ	صواب
٣٨	٤	وقا الذين	وقال الذين
٦٢	١٤	القحطانية التي تمت	القحطانية التي لا تمت
٩٤	١١	وبعده الى مكة	وبعده الى المدينة
١٠٢	٢١	عصبة	عصبية
١٢٠	٥	لتارفوا	لتعارفوا
١٢٠	٢٤	بفصل	بفضل
١٤٤	١٩	قدرسوخ	قدر رسوخ







